مذكرات شيوعي سوري

من زوايا الذاكرة:الدكتور جون نسطة

من زوايا الذاكرة:الدكتور جون نسطة

وهناك في يوم الثامن والعشرين من شهر ايلول **1961** سمعنا من خلال الراديو بسقوط الوحدة بين سوريا ومصر، ولا اكتم القراء بان فرحنا كان كبيرا، الى درجة إنني ورفاقي زياد إدريس وعون جبور ورزوق طولاب رقصنا وغنينا بوهم استعادة سوريا لحريتها وعودتها الى تطورها الديموقراطي التقدمي السابق.

كان من اسباب موقفنا هذا ايضا هو ما تعرضنا له   خلال اعوام الوحدة الاولى من ملاحقة وخوف من الاعتقال وترك الوطن واللجوء إلى لبنان، تحت ظل المعاناة المعيشية الصعبة والمريرة كالكابوس ومنه أيضا التأجيج والضخ الاعلامي الهستيري ضد سياسات نظام الوحدة وممارسته الدموية، من قبل رسائل الحزب المركزية وما كان يكتب في جريدة الحزب. "الأخبار" عن الاستعمار الفرعوني، وسياسة ابن الست وابن الجارية، ومحاولات مصر ابتلاع الثروات السورية، وتحطيم للصناعة وللتجارة ودور البنك المصري بالاستيلاء على الثروات النقدية والذهبية في البنك المركزي السوري.

كانت مقالات الكاتب في جريدة الاخبار أمين الأعور الاسبوعية، تغلي في الحماسة في مهاجمة نظام السراج والمشير عبد الحكيم عامر بذاتية مفرطة، تذكرني بخطابات احمد سعيد على الجانب الاخر من صوت العرب من القاهرة.كانت حربا كلامية نارية تأجج العواطف والنفوس وتشعل النار في الاجواء.

سلسلة: من زوايا الذاكرة

الدكتور جون نسطة

-الفصل الأول-

1953 - 1939

في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد الواقع في الثالث من ايلول ١٩٣٩ قدمت في مدينة حمص، إلى هذا العالم المعذب.
وكانت أصوات بائعي الصحف تلعلع في شوارع المدينة...بدأت الحرب العالمية الثانية.

في يومها أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا النازية، بعد كانت الأخيرة قد أدخلت جيشها إلى جمهورية بولونيا المستقلة بقصد احتلالها بعد احتلال الجمهورية التشيكية قبل ذلك وسكوت الغرب أو التغاضي عنه.

احتار والدي ماذا سيطلق على من إسم. وأخيرا استقر الرأي بأن إسم حرب هو المناسب. وهذا تقليد بدوي قديم، يسمون أولادهم، حسب المناسبة. فإذا ولد الطفل في الخميس يسمونه خميس أو في يوم الجمعة يسمونه جمعة أو في النهار فيسموه نهار أو رمضان الخ.

وكان من دواعي رغبة والدي بهذه التسمية هو نهاية إسم حرب بحرف الباء، حيث كان أطلق على إخوتي الكبار وكنت آخرهم الأسماء التالية:

أديب، لبيب، فيليب، منيب، مهيب. وكلها تنتهي بحرف الباء.

ومضت أشهر طوال وأنا أعرف بهذا الإسم، إلى أن قدم من المكسيك، صديق عزيز لوالدي إسمه حنا عيسى، ولم يرزق بأطفال على الإطلاق. فترجى والدي بأن يسميني على اسمه

وبأنه سيعتبرني إبنه، وهو رجل ثري جدا. فوافق والدي وذهب الى دائرة النفوس لتغيير الإسم وفي الطريق خطر بباله بأن إسم حنا قديم ولم يعد مرغوبا به، فأسماني جون.

وهكذا الانسان ليس متاحا له أن يختار إسمه ولا دينه ولا لغته ولا قوميته.

مع بداية الحرب بدأت أزمة اقتصادية تعم العالم ومنه بلدنا سوريا. ولم تسلم عائلتي من هذا المصير. كان والدي بعد عودته من المكسيك الذي عمل فيه مع اعمامه بالصناعة والتجارة، لمدة أربعة عشرة سنة، في العام ١٩٢١ قد جلب معه ثروة كبيرة جدا تفوق تصوري، فبنى قصرا جميلا بحي الحميدية في حمص بعد زواجه من والدتي روز عبود، فتاة جميلة متعلمة تتقن اللغة الانجليزية، وتفهم الروسية، من عائلة عريقة، حادة الذكاء، لبقة الاسلوب، حسنة التدبير بمنطق واع. وبعد عمله بالتجارة لفترة قصيرة ابتاع قريتين، الشومرية، والوريدة، وبنى في الوريدة قصراً ومضافة واسعة وجعلها مركزه في الريف إضافة إلى سكنه في المدينة.

كان والدي صبياً في الرابعة عشر من عمره عندما سافر إلى المكسيك لعند أعمامه ورجع معهم وهوفي سن الثامنة والعشرين. رجل طيب القلب، كريماً إلى حد التهور، لا يعرف طبائع الشرق، ولا طبائع الفلاح، التي لا تخلوا من الخبث أحيانا، لا يعرف الكذب، ولا يظن بأن الآخرون يعرفوه أيضا، فلم يستطع أن يكون مزارعاً جيداً، كما كان تاجراً وصناعياً ناجحاً في المكسيك من قبل.

بدأت أموره تتدهور إلى أن اندلعت الحرب وتوقف تصدير القمح السوري إلى اوروبا، بسبب خطر الغواصات الألمانية التي كانت تصطاد السفن في عرض البحر. ولم يعد، لهذا السبب أيضا، بمقدوره العودة إلى المكسيك بعد أن كان قد باع أكثر املاكه. وأصبح عملياً بدون عمل وبدون أية دخول.

كان فرش بيتنا، الذي حافظ عليه ولم يبعه، فرشا أرستقراطياً بكامل معاني الكلمة، من السجاد العجمي النفيس، والموبيليا الفرنسية، والملاعق والسكاكين والشوك الفضية، إلى

البورسلان الصيني والفرنسي الخ يتناقض مع الواقع الفعلي المعاش. وكانت والدتي تسعى بكل جهدها الحفاظ على المظاهر الخارجية الدالة على اليسر، رغم العسر الشديد. في هذا الجو المتناقض، بدأ وعيي المبكر، يشق طريقه، من دون أن أكون قادراً على التفسير. والوعي ينمو بتسارع في أجواء التناقضات. كنت أذهب إلى المدرسة وتتصدى لي المديرة وتقول إرجع إلى البيت ودع أهلك يدفعون قسط المدرسة. إرجع إلى البيت وأخبر والدي فيقول عد إلى المدرسة وقل للمديرة بأن والدي من بنى هذه المدرسة، وهذا صحيحاً وليس ادعاءاً، كنت أزور المدرسة الأرثوذكسية او الغسانية، نسبة إلى دولة الغساسنة العرب المسيحيين.

كنت في الثامنة من العمر وانا أسير بطرقات المدينة وأرى جموع الشحاذين، وأرى أصحاب العاهات والمعاقين، أتساءل لماذا الرب خالق البشر، تخلى عن هؤلاء ولم يقم بواجباته تجاههم وهو لا يرى آلامهم ولا يسمع لتضرعاتهم. كانت علاقتي بالرب مشوشة من ذلك الوقت ولا تزال.

كانت المدارس الخاصة الارذوكسية الابتدائي والاعدادي والثانوي تقع في حي قديم من أحياء المدينة يسمى بستان الديوان، وهو حي مسيحي اورذوكسي على الغالب، إن لم يكن كليا، مليء بالحياة والحركة، بسبب تواجد أعداد كبيرة من الطلاب، ومن المحلات والدكاكين العديدة، بما فيه محل كبير يملكه خالي رفائيل عبود وأسسه والد جدي لأمي مخائيل في العام ١٨٦٠ ولا يزال قائماً إلى الآن بإدارة ابن خالي مرشد عبود.

وفي محل خالي هذا كان بعمل، أجيرا شاب من ريف حمص الغربي، اسمه ابراهيم، ولا أعرف كنيته. كان هذا الشاب ذو ثقافة عالية من أدب وشعر ونثر، بالإضافة إلى معرفة وطيدة بالماركسية ونظرتها الفلسفية المادية خصيصاً. كان في وقت الظهيرة وحركة البيع معدومة تقريبا، يحدثنا عن الجيش الأحمر السوفياتي وانتصاراته وبطولاته.

بإعجاب كبير. وعن خلق الكون. كان يقول مقولة بسيطة وغير معقدة... شيء من شيء يوجد... شيء من لا شيء لا يوجد، معبرا عن عدم وجود خالق لهذا الكون.

الذي لا يوجد له بداية ولا نهاية.

كان ابراهيم كل يوم يعطينا درسا جديدا، نحن الفتية الصغار المتواجدون حول باب محل خالي هذا.

كان في الشارع الرئيسي لهذا الحي يوجد ثلاثة محلات للحلاقة، لكل محل زبائنه حسب الأعمار والطبقات الاجتماعية أيضا، محل لكبار السن، ومحل لأغنياء الحي، ومحل للشباب وأكثرهم من اليسار. وهذه المحلات تشكل صالونات اجتماعية وثقافية أيضا تجتمع بها الناس، ليس بغرض قص الشعر فقط، بل للأحاديث والنقاشات وتناقل الأخبار. وكان حلاقي اسمه باصيل باخوص، أيضا شيوعياً وقارئاً نهماً. كنت من جلساء صالونه الدائمين.

في هذا الحي أيضا كانت تقع كنيسة الأربعين شهيدا، أكبر كنائس حمص على الإطلاق.

ثمة علاقة لابد من ذكرها، بين الأرثوذكسية وبين روسيا القيصرية، وامتدت علاقة المحبة هذه بدون وعي إلى روسيا السوفياتية. وكانت هناك أعياد مسيحية مثل عيد السيدة العذراء وعيد الصليب، في هذا العيد كان الشباب يشعلون ناراً عالية تسمى الراموشة يتجمعون حولها وهم بغاية البهجة والسرور. وفي هذه الأمسية كان يقدم رجلا من حي الحميدية يعمل نجارا وبنفس الوقت كان شاعراً زجلياً، وناشداً مشهوراً، وهو قيادي في الحزب الشيوعي السوري في نطاق حمص. كان الشباب يتجمعون حول نظير بطيخ، هذا ولقبه أبو سليم، ويحملوه على الأكتاف في عراضة وهو ينشد.... عيد الصليب الله يعيده ويعيده (والشباب تردد من وراءه الله يعيده) وينصر السوفييت ويعيده...وينصر خالد بكداش ويعيده. إلخ

في هذه الأجواء والمناخات كانت مدارج وعي واهتمامي، تتسع وتتكون.

في المدرسة الاعدادية والثانوية المشتركة، وفيها يسكن بعض الطلاب بقسم الداخلية، من قرى وبلدات سورية متعددة، من تل تمر في الشمال السوري إلى السلمية والسقيلبية في ريف حماه، كنا خليطاً من مجتمعات متعددة ومن أديان عدة، كان يجمعنا بنفس الوقت، نزوعاً قوياً ضد ديكتاتورية أديب الشيشكلي، وكانت تخرج مظاهرات حاشدة إلى الشوارع

تنادي بالحرية. وكنت أشارك فيها إلى جانب الطلاب الشيوعيين، وكانت مجموعة تسير إلى جانب البعثيين الأقل حضورا.

في صيف ١٩٥٣ دعاني أحد الطلاب من قرية قطينة الى القدوم لغرفة كان يستأجرها في حي بستان الديوان، بغرض تأسيس خلية شيوعية ننتظم بها، لبيت الدعوة فوراً وبسرور عارم. وفي هذه الغرفة البسيطة والصغيرة كان يجلس رجلاً لم أكن أعرفه من قبل، ولكنه مريح جداً، هاديء ومتواضع، عيناه تنطق بالود والمحبة والحنان.

عرّفنا عن اسمه الصريح.... ظهير عبد الصمد.

كان من الحضور عدد من طلاب مدرستنا أذكر إلى الان، بعد أكثر من ٦٧ عاما، أسماء بعضهم، لا أعرف فيما إذا كانوا على قيد الحياة أم لا، وهم:

فاضل هديب.

فايز سمعان.

موسى طعمة.

عادل سلوم.

عون جبور وهو لا يزال من اصدقائي المقربين، طبيب نسائي، مقيم في المانيا.

بدأ الاجتماع بالقول بأنه شرف كبير للإنسان بان يحمل لقب شيوعي ومن ثم قام الرفيق ظهير بشرح معنى الفرقة الشيوعية ومهامها وتدرجاتها في التنظيم الحزبي من الفرقة الى اللجنة الفرعية ثم اللجنة المنطقية إلى اللجنة المركزية وأخيراً إلى المكتب السياسي والأمين العام خالد بكداش.

وقال بأن على فرقتنا أن يكون لها مسؤولها أي أمين الفرقة ومسؤول مالي ومسؤول ثقافي. ولها اجتماعات دورية سرية جدا.

وأذكر بأنني أصبحت مسؤولاً ثقافياً.

ثم حدثنا الرفيق ظهير عن أهمية الثقافة الماركسية وكونها هي اللحمة التي تجمع كل أعضاء الحزب وتصهرهم إلى كيان واحد يناضل من أجل الحرية والديموقراطية ومن أجل بناء الاشتراكية. وقام بتوزيع كتاب " أسس اللينينية" للرفيق ستالين وأن علينا البدء بمطالعته والتدارس حوله في كل اجتماع أسبوعي للفرقة. وبعد فترة أعطانا كراساً صغيراً للرفيق ليو تشاو شي (رئيس الصين بين عامي 1949 1966) وعنوانه "كيف تكون شيوعياً جيداً؟".

-الفصل الثاني-

من منطلق أن فرقتنا الحزبية من مجموعة طلاب، ومن مدرسة واحدة بدأنا بالعمل السياسي في صفوف الطلبة، ومع فرق طلابية شيوعية أخرى، نحرض على الاضرابات والخروج بمظاهرات تندد بالحكم الدكتاتوري لأديب الشيشكلي. وكانت المظاهرات تمر على دكاكين الباعة في حي بستان الديوان بحمص أولا وتطلب من الباعة الصغار اغلاق محلاتهم، وتنادي "سكر يا عرصا سكر"، فيضطرون لاغلاق محلاتهم لفترة مرور المظاهرة، ثم يعودون لفتحها مجدداً.

كانت المظاهرات تتجه نحو منتصف المدينة وأغلب الأحيان قبل وصولها لهدفها تتصدى لها الشرطة واغلبها من الشرطة السرية أو السياسية بألبسة مدنية، وتحاول القبض على الطلبة،وكنا نفر من أمامهم وهم يلاحقوننا.أحيانا نستطيع الفرار وأحيانا لا ننجح.

كان يرأس هذه المجموعة من الشرطة رجل حمصي في منتصف العمر إسمه أبو شمسو، الذي يعرف كل عائلات المدينة.كانوا عندما يقبضون على أحدنا يقودونه إلى فرع النظارة، وهناك كنا نتلقى بعض الصفعات على وجوهنا وأحيانا يضعوننا تحت الفلقة بعد خلع احذيتنا طبعا،ويضربون بعصا غليظة على سطوح أقدامنا، وكان أبو شمسو إذا تعرف على أحدنا، يكتفي بالاتصال بآبائنا ليحضروا إلى النظارة لاستلامنا بعد الطلب منهم بأن يحسنوا تربيتنا ومنعنا بالعمل بالسياسة. طبعا كانت اغلبيتنا من الصبية الصغار من العمر.

أحب في هذا المجال أن أروي حادثة ظريفة جرت في حمص.

قام أديب الشيشكلي بإجراء انتخابات برلمانية، بعد أن أسس تنظيم سياسي سماه جبهة التحرير، وجرى البحث عن مرشحين في كل محافظة. في العادة كان أحد نواب مدينة حمص عن المسيحيين إسمه عبد الله فركوح من الحزب الوطني يفوز دوماً في كل المجالس النيابية السابقة منذ عهد الاستقلال. ولأن الحزب الوطني وحزب الشعب والبعثي والشيوعي قاطعوا الإنتخابات. فقد طلبت السلطة من محام له سمعة طيبة ولم يكن سياسياً واسمه فيليب

فركوح ان يرشح نفسه ففعل.ومن الطبيعي ان ينجح وهو على قائمة السلطة، كما في كل عهود الاستبداد.

سمعنا إبن عمتي المهندس الشيوعي البارز مدحت أبو خاطر (عليه الرحمة)، وانا، بأن أهالي حي الحميدية من المسيحيين، يرغبون بالذهاب إلى دار النائب الفائز بالانتخابات السيد فيليب فركوح بقصد تقديم التهاني.

وبما أن جدي لأبي وجدّ الاستاذ مدحت لأمه، كان من وجهاء الحي،

توقعنا ان يذهب الموكب برئاسة جدي إلى التهنئة.فقمنا سوية مدحت وأنا بزيارة جدنا ديب نسطه، وشرحنا له موقفنا من النظام الدكتاتوري ومن هذهِ الانتخابات المسخرة ومن نتائجها المزورة، ما أشبه البارحة باليوم، ورجوناه أن يمتنع أن يشارك في وفد المهنئين. وكان يحبنا كثيرا فوعدنا خيرا.

وفي اليوم التالي تجمع أهل الحي واتجهوا إلى دكان جدي طالبين منه بالحاح أن يسير في مقدمتهم.فأصابه الخجل فطاوعهم. وعند وصولهم إلى فناء دار آل فركوح الواسع، الممتلىء بالمهنئين، صاح جدي بصوته الجهوري ...يا فيليب جئنا إلى هنا لنهنئك تهنئة شخصيه بس ك.... أخت الشيشكلي.

هاج الجمع وماج دون أن ينبس أحدهم بكلمة. وتبسم النائب ابتسامة لطيفة ودعاهم للجلوس وتناول القهوة كما جرت العادة.وخرج جدي إلى داره وهو مرتاح الضمير لأنه أرضى أهل الحي وأرضانا، ابن عمتي وأنا بنفس الوقت.

ديب نسطه كان رجلا أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة ،عمل في شبابه،كما أغلبية اهل مدينة حمص بصناعة النسيج لكنه كان مختصا بتزيين الكوفيات السوداء من الحرير بخيوط من الذهب بواسطة مكوك صغير جدا وكان يستغرق عمله على كوفية واحدة أسبوعا كاملاً ويأخذ أجرته ليرة ذهبية كاملة،لندرة الصناع من هذا الإختصاص.ثم هاجر إلى الأرجنتين لعند إثنان من إخوته ،حاملا معه على الباخرة كميات كبيرة من العرق الذي كان مولعا

بتعاطيه...ولم يطب له البقاء هناك طويلا فعاد إلى حمص .ثم بعد فترة ،قرر السفر الى المكسيك حيث يقيم ويعمل ثلاثة من أولاده منهم ابي،وثلاثة من إخوته .ومع ذلك لم يطب له البقاء هناك طويلاً بحجة ان بلداً ليس فيه عرق وأراكيل تنباك ليس صالحاً للحياة.

وعاد ومعه ثروة بددها بسرعةٍ واضطر لفتح دكان أو حانوت يشاركه فيه أحد معارفه ممن يجيدون الكتابة والقراءة.

ديب نسطه كان رجلا مربوع القامة لا طويلها ولا قصيرها يجيد رياضة السيف والترس، كان متفوقا بها، يشارك في حفلات المبارزة آلتي كانت تجري علنا في العديد من المحافظات في سوريا ولبنان.وكان المنتصر يجرح خصمه جرحا سطحيا بسيطا، غالبا على وجهه لكي تنتهي المبارزة.وظل وجهه وجبينه دائما بدون اية خدشة سالماً.

كان رجلاً جميل المحيا، عينان زرقاوتان يشعان كالمصباح في الظلام، وتحتهما شاربان أبيضان ضخمان مفتولان، يلبس القنباز من الجوخ الانكليزي في الشتاء، والصاي الحرير في الصيف، ويتزنر بشال عجمي بألوان جميلة، ويحتذي غالبا حذاءً من الجلد اللماع.

كان، وإن أطلت عليكم، رجلا شجاعا مهابا، كريما، ودودا. مرفها لنفسه ينام صيفاً وشتاءا في فراشه عارياً، ويستيقظ باكرا ليذهب إلى البئر في وسط داره ليغتسل بالماء البارد، متجها إلى بائع المغطوطة، هي فطور يعرفه القدامى من اهل حمص جميعاً، او إلى بائع الفطائر او الشعيبيات لتناول فطوره ومن ثم الى دكانه.

في نهاية شهر شباط (فبراير) من العام ١٩٥٤ قام ضباطا ًمن الجيش السوري في مواقع حلب وحماه وحمص على ما أذكر بعصيان او إنقلاب على أديب الشيشكلي، طالبين منه التنحي، فخرجنا جموعا كبيرة من الطلاب والاهالي إلى وسط المدينةَ وفيه موقع قيادةٍ الجيش، لتأييد العصيان تملئنا الفرحة والأمل، منشدين الأناشيد الوطنية والقومية والنضالية.

لم يمضِ يوم أو يومان على ما أذكر، حتى أذاع أديب الشيشكلي بيانا من إذاعة دمشق يعلن فيه حرصه على دماء السوريين وخوفه من حرب أخوة السلاح،معلنا استقالته من رئاسة الجمهورية، وعزمه على مغادرة البلاد.

قام بالعصيان ضباطاً أغلبهم من البعثيين وعلى رأسهم في حلب مصطفى حمدون.

عمت البلاد فرحة كبيرة لا تضاهيها فرحة وخرجت الجموع من جماهير واسعة من العمال والفلاحين وأهل المدن بكافة تلاوينهم المهنية.وتولى رئاسة الوزارة محام معروف بالوطنية والنزاهة هو سعيد الغزي أعلن عن إجراء عملية انتخابات نيابية في شهر أيلول من نفس العام.

بدأ حزبنا الشيوعي يستعد لخوض المعركة الانتخابية المقبلة،وذلك بالإتصال بالرفاق الذين توقفوا عن النشاط السياسي،بسبب الدكتاتوريات المتعاقبة المسيطرة على الحكم،بدءاً بانقلاب حسني الزعيم في آذار 1949 ثم سامي الحناوي وبعده الشيشكلي، التي نشرت الخوف والرعب بين الناس.وكذلك الإتصال بأصدقاء الحزب وأقيمت العلاقات المستجدة معهم. وكذلك أعادت بناء المنظمات الحزبية آلتي خرجت إلى العلنية بعد فترات العمل السري الطويلة.

وكان علينا نحن الطلبة ان ننتظم، أيضاً، في فرق حزبية في أحياء السكن أو أماكن تواجدنا اليومي. وهكذا انتظمت في فرقة حزبية في حي بستان الديوان أذكر بعض رفاقها منهم العامل في معمل سكر حمص زكي أبو فريوة، رجلاً مقداماً ينبض بالنشاط والحيوية، والرفيق اسبر بيطار، والياس غالي يعمل بالكهرباء، وغيرهم. وانتظمت أيضا بفرقة في حي المحطة حيث كنا نسكن. وكان معنا على ما أذكر الرفيق أكرم دلاور وشقيقه الأصغر أسعد أولاد الدكتور المشهور زكي دلاور وآخرين. وفي هذه الفرقة كان يشرف علينا ويعلمنا النظرية والممارسة رفيقنا الكبير ظهير عبد الصمد.

وأذكر بأن الحزب رشح إثنان من كوادره البارزين في حمص هما موريس صليبي وظهير عبد الصمد باسم مرشحي الجبهة الوطنية.وقامت كل منظمات الحزب بالعمل الدعائي لصالح المرشحين، وتنظيم العراضات والتجمعات في كافة أحياء المدينةَ للتعريف بمناقب الرفيقين النضالية والاخلاقية، واذكر خروجنا بعراضة من حي الحميدية اخترقت وسط المدينةَ وأسواقها المختلفة، قاصدين حي المحطة، حيث يقع منزل الرفيق المحامي موريس صليبي.

وكان كالعادة يقوم الرفيق نظير بطيخ الشاعر الزجلي والمنشد ذائع الصيت محمولا على الاكتاف بنظم بعض الشعارات. وفي هذه العراضة أنشد يقول "تهنى يالشعب الفقير، رشحنا محمد ظهير". لما وصلنا إلى الهدف قام الرفيق موريس صليبي من على شرفة بيته بإلقاء كلمة عرض فيها لأهداف الحزب في توطيد أركان الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ومناصرة مطالب العمال والفلاحين وإقامة جبهة وطنية في وجه القوى الرجعية والاقطاعية.

وفي العاصمة دمشق قام الحزب بترشيح ثلاثة أسماء هم خالد بكداش، وجورج عويشق، ونصوح الغفري. وفي محافظة حلب تقدم الرفيق احمد محفل قائمة المرشحين، وفي محافظة الحسكة تم ترشيح ابراهيم بكري والشاعر الكردي جكر خوين ورفيق كردي آخر نسيت اسمه. وفي اللاذقية وطرطوس كان لنا مرشحين نسيت اسمائهم.

في حلب حصل الرفيق أحمد محفل على نسبة عالية من الأصوات ولكنه لم ينجح مثله مثل كافة المرشحين، ما عدا الرفيق خالد بكداش، الذي جاء نجاحه في المرتبة الثانية بعد الزعيم الدمشقي خالد العظم.

كان لنجاح خالد بكداش في الانتخابات النزيهة السورية في ايلول من العام 1954 أصداء عالمية واقليمية وداخلية كبيرة. كان النائب الشيوعي الاول في العالم العربي.

وعمت الفرحة والفخر كل الأوساط التقدمية في سوريا ولبنان والأردن وحتى في العراق.

كنت وقتها في الصف الثامن اعدادي أذهب الى المدرسة في النادر، وهذا ممكن في المدارس الخاصة، وخصوصاً مع وجود الأستاذ نعمان، وهو أستاذ متقاعد مسن، كانت مهمته من قبل إدارة المدرسة تسجيل أسماء المتغيبين من الطلاب، والذهاب الى أهاليهم يعلمهم بذلك ويسألهم عن أسباب التغيب، كنا مع الأسف نرشي الاستاذ نعمان فيغض النظر عن قيامه بواجبه.

كنت بالمقابل مواظباً على قراءة الكتب بنهم عجيب. فلقد قمت بقراءة جل الأدب الروسي والسوفييتي من تولستوي، دستويفسكي، غوغول، تشيخوف إلى مكسيم غوركي، وبقية روايات الحرب العالمية الثانية البطولية في مقاومة الغزاة الألمان ومن أهمها رواية "وبالحديد سفيناه".

ثم بدأت بقراءة الكتب العربية وعلى رأسها كتب المثقف التنويري الكبير سلامة موسى الذي تأثرت به كثيرا والشيخ الأحمر خالد محمد خالد وكتاب في الثقافة المصرية لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس. ثم انتقلت الى قراءة لا بل دراسة الكتب الفرنسية المترجمة حول الفلسفة الماركسية، ومن أهمها كتاب لجورج بوليتزر "أصول الفلسفة الماركسية"، وكتاب الفلسفة الماركسية لهنري لوفيفر، ولروجيه غارودي قبل أن يرتد عن الماركسية مقبلاً على أموال القذافي والسعودية متخلصاً من فقره وعوزه في الحزب الشيوعي الفرنسي.

كان هذا يتطلب مني أن أسهر الليل بكامله وبالتالي عدم الذهاب الى المدرسة إلا قليلاً وفي اليوم الذي نكون فيه في قيادةٍ المنظمة الحزبية قد قررنا الخروج بمظاهرة بغض النظر عن المناسبة الآن كان كل طلاب المدرسة عند رؤيتي، يعلمون فوراً بأن اليوم وبعد فرصة الساعة العاشرة ستخرج مظاهرة من المدرسة.

وبالمناسبة كان أغلب أساتذة صفي مرتاحون لغيابي، لأنني، مع الأسف، ومن باب النقد الذاتي الآن، كنت طالباً مشاغباً ً معاكساً ً، صاحب نكات، مقاطعاً، يصعب عليهم تلاوة الدرس بوجودي. وكان هذا ينعكس على علاماتي المتدنية، مما دفع أهلي إلى قرار بأن يدخلوني الى مدرسة داخلية في دمشق لدراسة الصف التاسع وفيه شهادة الكفاءة (البروفيه)

الهامة. أدخلوني إلى مدرسة الروم الكاثوليك في حارة الزيتون في حي القصاع في دمشق والمعروفة بالمدرسة البطريركية.

كان يرأس هذه المدرسةِ راهب اسمه الأب هبة والناظر فيها راهب اسمه أبونا صارجي، وهو رجل في أواخر الستينات من العمر، من القساة الحازمين، شديد العقوبة مهاب الجانب، عملية الصفع وشد الشعر تتم لأتفه مخالفات الطلاب عنده.

في هذه المدرسةِ يسود نظاماً حديدياً بكل معنى الكلمة وخصوصاً في القسم الداخلي. كان علينا النوم في مهاجع في وقت مبكر ومعين تطفئ الكهرباء به ونمنع من الكلام حتى الصباح، ويوقظنا جرس عالي لنذهب الى المغاسل بإشراف أحد الرهبان ثم الى اللباس بتواتر سريع والكلام به ممنوع ثم الى المذاكرة الصباحية ثم الى الدرس الديني المسيحي، وغير المسيحيين من الطلاب، لا يفرض عليهم حضوره، ومن ثم في طابور إلى المطعم لتناول الفطور على مقاعد وطاولات خشبية قرعاء، نظل واقفين فيها إلى أن يقرع الجرس، بعد الأكل مع الصمت يقرع الراهب جرساً يسمح بعده الكلام مع صلاة الشكر. ثم نخرج الى باحة المدرسةِ بطابور صامت ايضاً، وبعد فرصة ربع ساعة ندخل الى صفوف المدرسة مع الطلبة الخارجيين. في فرصة الغذاء كان يجري الأمر كما في الصباح، ونسيت أن أذكر بأن بدء الطعام يجري بعد قرع الجرس والانتهاء منه بعد الجرس، شبع الواحد منا أم لم يشبع.

في وجبة العشاء كان يجري أمر مميز، حيث يتلو أحد الطلاب، بعد الطعام، في كتاب بالصوت العالي من روائع الروايات الأدبية، مثل قصة مدينتين لتشارلز ديكنز أو من رواية البؤساء لفيكتور هوغو. وكان ذلك ذو فائدة كبيرة بالنسبةِ لنا.

من هذه المدرسة طردت مرات عديدة لأسباب سياسية ودينية وكنت أعود بنفس اليوم ببعض الحنكة والدهاء بالذهاب إلى البطرك محتجا بأن الرهبان يضطهدونني لاني من الطائفة الأرثوذكسية، مما يجعله يتدخل لمصلحتي طبعاً.

لم يكن يسمح لنا بمغادرة المدرسة إلا في يوم الأحد فقط، كنت استغله للذهاب بزيارة إلى ابن بلدي ورفيقي حنا عبود، الذي كان موظفا في وزارة المالية ويدرس الأدب العربي في الجامعة. هذا الرجل كان على ذكاء مذهل واجتهاد مضني. كان عندما أزوره منشغلا بالرسم الزيتي لصورة كارل ماركس، وعندما يرتاح يبدأ معي في القراءة من كتاب "رأس المال"، وبعدها يذاكر معي في دروسي المدرسية وخصوصا في مادة قواعد اللغة. لقد تعلمت منه الكثير الكثير مما يخدمني الى الآن.

حنا عبود يعتبر الآن من أهم نقاد الأدب وله أكثر من 32 كتاباً في التأليف وخمسين كتاباً مترجماً.

الخلاصة في هذه المدرسةِ نلت شهادة الكفاءة وعدت إلى حمص مجدداً. وعندما ذهبت في شهر أيلول الى مدير المدرسة الاستاذ ندرة اليازجي لتسجيل نفسي في الصف العاشر لم يصدقني بأنني نجحتَ في فحص الكفاءة، حتى اضطررت لإحضار الجريدة وفيها اسمي من الناجحين منطلقاً ومعتمداً في ذلك إلى نتائجي في الصف الثامن.

في هذه المدرسةِ نلت شهادة الكفاءة وتعلمت الانتظام والانضباط الزمني والنظام الحديدي ودقة المواعيد. ومن الأستاذ حنا عبود اللغة العربية الفصحى وأسلوب التفكير العلمي.

دخلت مدرستي القديمة مجدداً، وكأنني إنسان جديد طالب مجتهد منضبط مواظب على دروسه، ومن الأوائل في علاماته، وكان من أحب المواد إلى نفسي مادة التاريخ ومن أحب الأساتذة محمود السباعي، الذي كان يكلفني أحياناً بإلقاء الدروس أمام الطلاب بدلا عنه، نظرا لثقته العلمية بي.

وعلى النطاق السياسي وجدت المدرسة تعج بالطلاب الشيوعيين أولاً والبعثيين ثانياً. لم يكن للقوميين الاجتماعيين السوريين ولا للإخوان المسلمين أي تواجد.

كنا نخرج بتظاهرات حاشدة تنديداً بحلف بغداد وبمشروع النقطة الرابعة وتأييداً لعبد الناصر بعد قرار تأميم شركة قناة السويس.ونهتف من أجل إقامة الجبهة الوطنية، الأمر

الذي يجعلنا نتعارك مع زملائنا البعثيين من أجله، فهم كانوا يعتبرونه شعاراً حزبياً شيوعياً بحتاً، في حين كنا نرى فيه شعاراً عاماً يدعوا إلى التحالف معهم ومع بقية الوطنيين الديمقراطيين، مما يدعوا للضحك الآن. كنا أيضاً نهتف خارج السرب أيضاً: "عاش الحزب الشيوعي عاش بقيادة خالد بكداش"، فيرد البعثيون: "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة".

كنت أقرأ جريدة الحزب الشيوعي، أي جريدة النور يومياَ، وعلى الأغلب الافتتاحية منها واقرأ جريدة الرأي العام لصاحبها احمد عسه ورئيس تحريرها التقدمي جبران كورية.

وكنت، في هذه الفترة قد انتسبت وصديقي المزمن وإلى اليوم عون جبور إلى ناد فني ثقافي موسيقي يدعى دار الألحان حيث كان أخي الأكبر مني سناً، فيليب نسطه عضواً فيه يعزف على آلة موسيقية حديثة اسمها الماندولين. كنا عون وأنا وفيما بعد زميلنا الشيوعي أيضا رامز غطاس نذهب يومياً مساءً الى هناك ونستمع الى البروفات الموسيقية والغنائية ونقوم بتدريبات مسرحية بإشراف الممثل والمخرج القدير الأستاذ محمود طليمات، اذ كنا نحن الثلاثة لا نتقن العزف، لذلك أصبحنا ممثلين.

هذا النادي ضم موسيقيين وملحنين مهمين جدا أذكر منهم عبد الحميد طرابلسي. وبالمناسبة هو شقيق عبد المجيد طرابلسي زعيم حركة الإخوان المسلمين في حمص (وزير الأوقاف بالثمانينيات)، والتاجر وعازف العود محمود الفاخوري وغيرهم. كنا نقيم حفلة فنية في كل شهر تقريباً تضم الموسيقى والغناء والمسرح.

وأذكر بأنني قمت بدور مهم في مسرحية البخلاء لفولتير وبدور هارون الرشيد بمسرحية أخرى، والذي أدى دور أبو النواس الممثل المبدع الخارق ماهر عيون السود. وفي العودة الى السياسة مرة أخرى كان من مميزات منظمتنا الحزبية في المدرسةِ أنها كانت منظمة خارقة للطوائف وتضم أعضاء من عائلات حمصية سنية مرموقة. أتاسي ودروبي وبني وموصلي وسباعي وكلاليب الخ ومن جملة رفاقي واصدقائي المقربين أذكر محمد حسان الأتاسي حفيد الرئيس هاشم الأتاسي لأنه ووالده قاضي محكمة الجنايات الأستاذ النزيه حسن

الاتاسي، ونضال الاتاسي البعثي علنياً والشيوعي سرياً. وتمام الموصلي. ومن الأصدقاء صبيح وعادل وتوفيق الأتاسي.

وأحب أن أذكر حادثة مهمة تدل على وطنية ووفاء للحزب من قبل حسان الأتاسي أطال الله من عمره. حيث كنا مرة في زيارة أحد اصدقائنا ودخل علينا جار له، لا أود ذكر إسمه، يعمل مهربا بين بلغاريا وسوريا، له علاقات مشبوهة من أمرها، بمخابرات دولية. ولما سمع بوجود الرفيق حسان الأتاسي بيننا توجه اليه بالقول طمن والدتك بان شقيقها عدنان الأتاسي سيخرج قريبآ من السجن.

كان عدنان الاتاسي ابن هاشم الاتاسي محكوما عليه بالسجن المؤبد بحكم قضائي سوري لاشتراكه في مؤامرة ستون الشهيرة على ما أذكر عام 1957 التي دبرتها واشنطن. ظننا نحن بأن المذكور لا ينطق عن هوى، وإنما ربما هناك مؤامرة يخطط لها بالسر للقيام بالإطاحة بالنظام الوطني وإطلاق سراح عدنان الأتاسي ورفاقه. تداولنا بالأمر حسان وعون وأنا وقررنا الذهاب إلى الرفيق واصل فيصل مسؤول منطقية الحزب في حمص وإحاطته علما بالموضوع. طلب واصل فيصل من الرفيق حسان الأتاسي أن يذهب بنفسه الى المدعو عبدو حكيم، جلاد الشيوعيين في عهد الوحدة وقاتل أول شهيد شيوعي خلالها الرفيق الشهيد سعيد الدروبي، واخباره بالقصة وعلمنا بعدها بأن المخابرات ألقت القبض على الرجل المشبوه المذكور سابقاً.

هذه الحادثة تدل على مدى وطنية وشيوعية حسان الأتاسي.

واذكر حادثة أخرى مهمة أخرى.

عندما علمنا بعودة الرفيق خالد بكداش من موسكو برفقة وزير الدفاع الأستاذ خالد العظم بعد توقيع معاهدات دفاع وأسلحة مع الاتحاد السوفياتي، قرر الحزب اقامة استقبال شعبي في مطار المزة. فتوجهت خمسة باصات من مدينة حمص ركابها كلهم شيوعيون وأصدقاء

لهم وكنت طبعاً من ضمنهم. وصلنا دمشق وكانت الجموع تغني: "هلهلت الشام وكالت (قالت) يا هلا بالزايرنا، ياهلا برفاك (برفاق) خالد والشيوعية أجمعينا".

بعد أن وصلنا إلى وسط المدينةَ وفي نقطة تجمع معينة صعد إلى الباص الذي كنت متواجد به، الرفيق موريس صليبي وطلب منا العودة الى حمص فورا. ولما سألنا محتجين عن السبب، أجابنا بأن الحشود كبيرة جداً ولا ترغب قيادة الحزب بإخافة البرجوازية من تعاظم جماهيريته.

رجعنا فعلا مكسورو الخاطر حزانى.

في طريق العودة كنا ننشد أناشيد وطنية وشيوعية. ومن ضمنها نشيد من كلمات وتلحين الأستاذ عبد الحميد الطرابلسي والذي مطلعه، بمناسبة حرب العدوان الثلاثي على مصر:

اعصفي يا مصر ريحاً صرصراً يوم القتال ودعي الأهرام تنشق سيوفا وعوالي

كانت مرحلة الأعوام 1954-1958 من أروع مراحل عمري السياسية. وكانت سوريا واحة من واحات الديموقراطية، وبلد يشع على آسيا وأفريقيا والعالم الثالث.

ازدهرت الصحافة وانتعشت حريات النقابات وتأسست الجمعيات والنوادي ومنظمات المجتمع المدني المختلفة وازدهر النشاط البرلماني وصدرت العديد من القوانين التقدمية. ولا زلت الى اليوم أقول: "أحلم بالعودة الى ذلك الزمان الجميل".

الفصل الثالث -

في السنوات 56 و 57 من القرن الماضي توسع حزبنا، صاحب التنظيم الحديدي والمنظم جيداً، توسعاً كبيراً في كافة أطراف سوريا، ومن ضمنها الحركة الطلابية.في مدرستنا الغسانية في مدينة حمص، بلغ عدد الطلاب الشيوعيين 80 رفيقاً او اكثر بقليل، وكانت اجتماعات الفرق الحزبية تجري أسبوعياً، وكان علي ان احضر عشرة اجتماعات في

الأسبوع أو أكثر بقليل، حيث كنت في قيادة منظمة المدرسة، التي تتبع اللجنة الفرعية، المسؤولة عن كل المنظمات الحزبية في كل مدارس حمص، وكنت اتصل مع ممثلي اللجنة الفرعية الرفاق فيصل عجمي، الذي كان فنانا تشكيلياً وأصبح فيما بعد أستاذا بكلية الفنون التشكيلية في دمشق، بعد ان تخلى عن شيوعيته، وكذلك أتصل بالرفيق بشير الخطاب، الذي حافظ على شيوعيته وإن كان خارج التنظيمات الحزبية، الى اخر يوم في حياته الخاصة والنضالية في مناهضة الاستبداد والديكتاتورية الاسدية.

في بداية الوحدة مع مصر في 22 من شهر شباط 1958 عمت المظاهرات الشعبية والطلابية كافة أنحاء المدينةَ، ولم نكن نحن في قواعد الحزب الشيوعي السوري على موقف متحفظ من الوحدة في البداية. أذكر أننا في هذا اليوم خرجنا من مدرستنا في مظاهرة تأييد للوحدة طافت شوارع المدينةَ إلى أن وصلت إلى دار الحكومة ،وكنا نحن الشيوعيين لا نشكل اقلية فيها بل عل العكس تماماً، وجرى تكليفي بالقاء كلمة المظاهرة، فوقفت على درجات البناء والقيت كلمة قلت فيه على ما أذكر، هذا يوم مدعى فرحنا وسرورنا وقد تسلمت أمورنا وقيادتنا أيادي بيضاء في مقارعة الاستعمار والامبريالية ومشاريعها وفي المقدمة مشروع حلف بغداد، وتحترم مطالب الشعب العامل والفلاحين....الخ.

كانت هذه أخر مظاهرة خرجنا بها في أيام الوحدة. بعدها علمنا بأن الرفيق خالد بكداش تفادى حضور جلسة مجلس النواب للمصادقة على الوحدة وسافر بنفس اليوم بالطائرة الى موسكو، وكان ذلك مؤشرا واضحا على عدم موافقة القيادة على الوحدة الاندماجية مع مصر، وعليها تحفظات موضوعية على البنود التي قامت عليها.

في شهر آب عام 1958، وقف الرفيق خالد بكداش على منبر مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري وألقى خطابا عرض فيه النقاط الثلاثة عشر للحزب، المتضمنة ضرورة مراعاة الظروف الموضوعية المختلفة لكلا القطرين المصري والسوري، والحفاظ على المكتسبات الديمقراطية للشعب السوري والطبقة العاملة، والى ضرورة الحفاظ على الصناعة السورية وإلى متابعة الطريق لتطوير العلاقات مع الإتحاد السوفياتي وبقية دول المنظومة الاشتراكية

لما فيه من فوائد لكلا القطرين الشمالي والجنوبي، وبالإضافة الى نقاط أخرى لم اعد اتذكر تفاصيلها، والتي كانت جميعها تصب في اصلاح الوحدة للمحافظة عليها وليس إلى معاداتها أو الدعوة لإسقاطها على الاطلاق.

لكن النظام هاجمها هجوماً ظالماً وشديد اللهجة، وتوتر الوضع في الشارع السياسي السوري.

أذكر أنني تشابكت بالنقاش مع طالب من ال السطلي لم أعد أذكر اسمه الاول، بعثيا، ناصريا، متعصبا، وتطور الامر للتشابك بالأيدي، ووجهت له ضربات قاسية، وتوعدني بالذهاب إلى دائرة المباحث، وهو الاسم الجديد الذي أطلقه النظام المصري بدلا عن المكتب الثاني القديم المعروف.

وخوفا من الاعتقال، قررت السفر إلى بيت تابع لمشاريع ري الأراضي الزراعية من نهر العاصي، قريباً من قرية تومين التابعة لمحافظة حماه، ويعمل شقيقي المرحوم لبيب نسطه على إدارته. وبقيت مختبئاً فيه لمدة ثلاثين يوماً كاملا، حتى توضحت الأمور، بأن المباحث لا تبحث عني.

كنت خلال هذه الفترة أنام النهار واسهر الليل حتى لا يراني أحد ويفسد علي. في هذه الفترة دعا شقيقي أحد معارفه من بدو بني خالد للسهر معي، وهذا الرجل البدوي واسمه أبو خالد، كان شاعراً نبطياً ويعزف على الربابة، ويغني بصوته الرخيم قصائد العرب المشهورة، والتي تروي غالب معارك العشائر البدو من العصور الاولى لدخول العرب المسلمين الى بلاد الشام حتى تاريخه. وسلسل لي كافة أصول القبائل العربية، والتي حسب معلوماته، ترجع كلها إلى الإمام الحسن.

كانت ليالي ممتعة واخبارها جديدة علي، تعلمت منها الكثير وحفظت بعض قليل من اشعارها.

وهناك وبالقرب من بيت الري، كما كنا نسميه،خيم الشاعر الحمصي الكبير، بل شاعر حمص وصفي القرنفلي، الذي كان يعمل مساحاً للأراضي الزراعية، يرافقه عاملاً واحداً يساعده.

كنت اعرف الشاعر وصفي القرنفلي من خلال جلساته الأدبية والشعرية التي كان يعقدها في مقهى الروضة الشهير في حمص والذي كان يعج بحضور الأدباء والسياسيين من كافة الإتجاهات، وكان يسمى بمطبخ السياسة، ومن ثم انتقل إلى مقهى الفرح المجاور للروضة، وكنت أسمع أخباره وعن طباعه، من ابن اخته صديقي من آل القرنفلي أيضاً.

كان مثلا لما يجلس في المقاهي في حمص أو دمشق، التي كان يزورها كثيراً، ويلتم حوله مجموعة من محبيه ومعارفه، لا يسمح لأحد أن يدفع قرشاً واحداً من قيمة المشروبات التي يتعاطوها، ويدفع عن الكل.

واذكر حادثة طريفة تعبر عن أخلاقه المتزمتة، قمت بزيارته في خيمته الجارة لبيت الري، الذي كنت أقيم فيه، وبيدي صحيفة او جريدة، فسألني ان كانت حديثة، قلت نعم وهي تحت تصرفك، فأجابني، بأن عليه أن يدفع لي ثمنها أولاً ومن ثم يقرأها. كان حنيفاً، صارماً مع نفسه ومع كرامته.

وصفي القرنفلي يستحق أن أقف عنده قليلاً. كان شاعراً رومانسياً، غنى للحب والطبيعة، ودعى في أشعاره إلى النضال ضد الإستعمار الفرنسي، وضد النظام الإقطاعي السائد، ودعى الى انصاف العمال وإعطائهم حقوقهم كاملة، بل إلى الثورة الإشتراكية.

وفي بيت من قصائده يقول:

أن الشيوعية الحمراء في دمنا... نار تصبح رويداً تطلق اللهبا

كان شيوعياً، درس الماركسية جيدا واعتنقها، وعروبياً بنفس الوقت يقول في إحدى قصائده:

سبح الصبح ان راءنا وانتشى... الدرب يوم همت خطانا

عرب نحن والعروبة إنسان شريف يستنكر العدوانا

وفي بيت آخر يقول:

قل للندنا إن غص السؤال بها... الريح شرقية والشام في السحب

مرض الشاعر الكبير وصفي القرنفلي، وهو من أدخل إلى الشعر العربي اضافات هامة مشهودة له من كافة النقاد ولم يعتني بنفسه، في العام 1965، وأحيل الى التقاعد، وبدأ جسده بالذبول، واصبح خيالاً، وتوفي وحيداً، وهو لم يكن متجوزاً، يرعاه شقيقه وشقيقاته وأولادهم.

وحضر، قادماً من بيروت، حفل تأبينه، الشاعر السوري الكبير نزار قباني، حيث القى كلمة مؤثرة وهامة، موجودة على الإنترنت لمن يرغب بالإطلاع عليها، ودفن في مقبرة مار اليان في حمص القديمة.

وقبل أن أنهي كلامي عن الشاعر المتميز وصفي القرنفلي أحب أن أروي هذه المعلومة التي تدل على شهامة نفسه وتعاليها.

كان عندما تقاعد يسافر إلى دمشق العاصمة في فصل الصيف ويجلس لتعاطي الاركيلة، في مقهى الكمال الصيفي، وهناك يجلس مساءا أيضاً على طاولة متجاورة من طاولته شاعر العرب الكبير مهدي الجواهري. وكان الاثنان يعرفان بعضهم بالسمع، ويقدر الشخص الآخر ويحترمه. ولكن مضت سنين ولم يتقدم منهما الى طاولة الآخر، ولم يتقابلان على الاطلاق.

-الفصل الثالث-

بالعودة إلى السياسة، عندما رجعت إلى المدينة وأعدت اتصالاتي مع منظمتي الحزبية في أواخر العام 1958، ولكنني كنت متواري عن الأنظار بالقدر المطلوب، عمدت إلى تشكيل فرقة حزبية من أطفال صغار، من طلاب المدرسةِ الغسانية، من محبي الحزب وانصاره، سميتها فرقة المراسلات، لأنها كانت تقوم بنقل رسائلي الخطية إلى الرفاق الآخرين وتنقل رسائلهم لي، كانوا أعضاءها نشيطين ومتحمسين ولا يلفتوا نظر أحد، ومن اعضاءها أذكر اسم زهير جبور ومحسن عبود وشقيقه مرشد عبود وغيرهم.

انقطعت طبعا عن المدرسة ولكني كنت حولها.

في 14 كانون أول 1958 على ما أذكر قدم المبعوث الاميركي الى الشرق الاوسط ويليام راونتري، حاملاً معه مشروعه لحل مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي، وزار القاهرة، لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر. عندها عمل حزبنا الشيوعي بتنظيم حملة تواقيع على عرائض تندد بالزيارة وعلى مشروعه ،وعلى استقباله من قبل الرئيس.

وكنت أحمل إحدى العرائض واجمع تواقيع عليها من قبل الناس في الشوارع، وإذا بمجموعة من رجال المباحث السريين يلقون القبض علي ويذهبون بي الى مكتب رئيس فرع المباحث المجرم عبدو حكيم.

دخلت المكتب ولم أرى أية وسيلة من وسائل التعذيب من عصي أو أجهزة كهربائية الخ، فاطمأن قلبي.كان مكتبا أنيقا ،يجلس على طاولة كبيرة عبدو حكيم الذي قام باستقبالي على صفعة شديدة على خدي الأيمن، ثم قام بقراءة العريضة وتمزيقها أمامي، وسألني... ولا.. أنتم تريدون ان تعلموا جمال عبد الناصر الوطنية، أجبته نعم... ونحن الشيوعيين أشد المناضلين ضد الإمبريالية الأميركية وأصلبهم. كان الطقس باردا وفي مكتبه مدفأة تعمل على المازوت ولم تسترعي اهتمامي وكنت أقف إلى جانبها، واذ به يقوم بانتزاع بنطلوني وما تحته إلى الأرض ويجلسني عليها بحركة سريعة جدا وخاطفة. بعدها أطلق سراحي ولم

يعتقلني. وكنت اشعر بألم شديد، واستطيع السير. بقيت وقتاً طويلاً أعاني من الألم، لم أعلم أهلي بما جرى.

في ليلة عيد رأس السنة 1959، وكنا مجموعة من الرفاق والاصدقاء، نسهرفي بيت رفيقي وصديقي المحبب عون جبور، جاءنا خبر يحمله احد الرفاق الطيبين، بأن عملية اعتقال واسعة من قبل مباحث حمص شملت عدداً كبيراً من قيادات الحزب وكوادره.

وفي يوم الرابع عشر من شهر شباط عام 1959 علمنا باستشهاد رفيقنا اللامع والمحبوب، معلم المدرسةِ وعضو قيادةٍ المعلمين، سعيد الدروبي ابو طاهر، على يد المجرم السفاح عبدو حكيم رئيس مباحث حمص.

أثار هذا الخبر المؤلم مشاعر أهل المدينةَ كلها، وظهرت علائم الاستنكار والغضب على وجوه الناس. فعمد المجرم عبدو حكيم إلى الادعاء بأن سبب موته تعود الى انتحاره، وليس إلى التعذيب، وطلب معاينة الجثة من قبل الطبيب الشرعي الدكتور أمين طرابلسي، ضاغطاً عليه ومهدداً له، بأن يكتب على تقريره، بأن سبب الوفاة تعود إلى الانتحار، رفض الطبيب طرابلسي الرضوخ لتهديداته وكتب بأنه توفي بسبب التعذيب الواضح الأثر على الجثة، مبرهناً على نزاهة عالية، ومحافظاً على شرف المهنة. وهذا الموقف النبيل لا يزال الى اليوم مطبوعاً على ذاكرة قدامى السن من الشيوعيين وأصدقائهم.

في اليوم التالي لاستشهاده تجمع الآلاف من أهل المدينة وبعض القرى امام منزل الشهيد وساروا خلف نعشه المحمول على الأكتاف، متوجهين من مركز المدينة، حيث يقع منزله، إلى شرق المدينة، لمقبرة خالد بن الوليد.

يقدر عدد المشاركين بالجنازة بحوالي ثلاثين ألفا،تحولوا الى ما يشبه المظاهرة.اصطف على طول الطريق على الصفين العساكر مع أسلحتهم الكاملة،ولم يتدخلوا ولم يستفزوا أحداً من المتظاهرين.

وصلنا إلى المقبرة بعد مسيرة طويلة، وتجمعت الناس حول القبر، حين صعد على مرتفع قريباً منه، رفيق يلبس على رأسه طاقية تغطي كامل وجهه، ولا تظهر إلا العينين من خلال ثقبين فيها. وألقى كلمة الحزب بتأبين الشهيد إبن حمص البار وابن عائلة وجيهة ومعروفة جداً، وكان أول شهداء الحزب الشيوعي السوري على يد المخابرات السلطانية السراجية. وفيما بعد علمنا أن من ألقى كلمة تأبين الشهيد، كلمة الحزب الشيوعي، كان الرفيق رياض الترك، الذي لم يكن اسمه معروفاً في أوساط الحزب في ذلك الوقت.

فيما بعد علمنا أن المباحث طلبت من ستوديو شكري عواد في شارع الدبلان، تصوير من شاركوا بالجنازة، ولكنه رفض هذا التكليف، لأنه هو من أنصار الحزب، وأولاده وبناته أعضاء نشطين في الحزب الشيوعي أيضاً.

فقامت المباحث بتكليف ستوديو آخر بهذه المهمة القذرة وقبل، وقام بعملية التصوير. ولهذا قمت وبعض الرفاق الاخرين للدخول الى تحت الأرض، كما يسميه البعض، وإلى التخفي السري، كما نسميه نحن. وأرسلت رسائل الى الغرق الحزبية بضرورة الحذر الشديد، وأن يختفي، من يظن نفسه مهدداً بالاعتقال، بشكل كيفي وخاص، لأن الحزب لا يملك بيوتاً سرية كافية لكل الرفاق ومن ضمنهم أنا أيضاً. وجرى هنا سماع بعض الآراء من بعض الرفاق يقول: "كيف يدخل الحزب هذه المعركة مع النظام، دون أن يكون مستعداً لها، وكيف يخطب الرفيق خالد بكداش من منصات الخارج في صوفيا وموسكو، متمتعاً بالأمان، متحدياً النظام، ونحن نترك لوحدنا، دون حماية بيوت سرية، وخطة انسحاب، لمواجهة الاعتقال".

انا شخصياً توجهت إلى بيت خالي وإلى بيت خالتي واختفيت هناكَ.

وكنت عندما أخرج للضرورة، ولمقابلة أحد الرفاق، أرتدي عباءة زرقاء من الجوخ، ورثتها من جدي، أغطي فيها رأسي، فاتحاً فجوة فيها للتنفس والرؤية فقط.

جاء أحد أصدقاء خالي ويدعى أبو الخير طليمات وهو رجل متعاطفاً مع حزبنا، ذكياً، حاذقاً، وقال لي: "تنقل يا جون، ولا تبقى في مكان واحد طويلاً، لأن للجدران عيون وآذان".

سمعت بنصيحته وبدأت أبحث عن بيت آخر للاختباء فيه، فذهبت إلى بيت صديق حميم، شيوعي سابقاً، اسمه اسبر بيطار، من قرية مشتى الحلو سابقاً، رجل صادق ومخلص، وأمين وكريم، بقيت عنده فترة طويلة، أختبئ بمخدع خاص، عندما يأتي لعندهم بعض الزوار. وتطبيقا لنصيحة ابو الخير طليمات، بدأت مع صديقي اسبر نبحث عن بيت أخر، فتكلم مع صديق له، لي معرفة سطحية معه، بموضوع استضافتي، فرحب وقال أهلا وسهلاً. يدعى ألبير، نسيت إسم عائلته القادمة من الجزيرة السورية.

كان يسكن وعائلته في بيت عربي، لهم غرفة معيشة ومطبخ، وغرفة ضيوف، تشرف كلها على أرض الدار الواسعة، وكان يسكن في نفس الدار عائلات مستأجرة أخرى في غرف منفردة أيضاً. استقبلني استقبالا حاراً، علما بأنه منظم في حزب البعث العربي الاشتراكي، وأكرمني اكراماً لا يوصف، واسكنني في غرفة الضيوف منفرداً، كان علي أن أنام في النهار، واسهر معاه في الليل، مسدلاً لستائر الغرفة بشكل محكم تماماً، حتى لا يراني أحد من الجيران. سهرنا ليال جميلة جداً، نتحدث بالسياسة، وبأمور حياتية أخرى، وتوضدت معه أواصر صداقة حارة ومتينة.

في احدى الليالي، وعلى ما يبدو أكيداً نسينا ان نسدل الستائر بشكل محكم، طرق باب الغرفة أحد الجيران، حوالي الساعة الثانية صباحاً، وكان ذاهباً إلى المرحاض في أرض الدار، ورآني من فجوة الستائر، وكان يعرفني شيوعياً نشطاً، وطلب من ألبير ان يخرجني فوراً من الدار، وإلا سيكون مضطراً لأخبار المباحث. كان موقفاً حرجاً لي ولمضيفي. خرجت من البيت تحت التهديد، مع أسف واحراج صديقي ألبير، ولكن لم أكن أعرف إلى أين.

كان هذا ظرفاً من أصعب الظروف التي مررت بها في حياتي.

قررت أن أسير، مختبئاً بعباءة جدي، بشوارع المدينةَ القديمة، حتى تدب الحركة في المدينةَ، وأطرق باب أحد اصدقائي من البعثيين الشرفاء، ولا أرغب الآن ذكر اسمه لأنه لا يزال على قيد الحياة، فاستقبلني استقبالاً حاراً أيضاً، رغم معرفته بأنني ملاحق من قبل رجال الأمن، بقيت عنده بضعة أيام، بعد أن أقمت صلة برفيق سري، اسمه أبو مكسيم من قرية قطينة المجاورة لمدينة حمص. وكان على ما يبدو عضواً في اللجنة المنطقية لمحافظة حمص، المشكلة حديثاً، أي بعد حملة الاعتقالات الشاملة، والتي طالت أغلب القيادات الحزبية. تشكلت اللجنة المنطقية السرية الجديدة من رفاق مناضلين سريين ورفاق كانوا مهملين حزبياً، ولكنهم ظلوا أوفياء للحزب بقيادة المناضل، العامل، راتب جبنة. وربما كان، كما علمت من وقت قريب، من عدادها الرفيق صبحي انطون، ومناضل فلاحي آخر يدعى أبو جون من قرية الوريدة.

بعد فترة قصيرة جرى إعلامي بتوصية الرفيق راتب جبنة لي، بأن علي السفر الى لبنان، سراً طبعاً، لأنني وجه طلابي معروف من قبل عديد من الناس، ومن أجهزة المباحث، ولا أصلح، لذلك، للعمل السري.

قمت، متخفياً طبعاً، بمغامرة الذهاب إلى بيتنا في حي المحطة، لوداع أمي التي كنت أحبها حباً جنونياً، وأعلمتها بنيتي بمغادرة حمص إلى لبنان. سمع أخي لبيب برغبتي هذه، وكان رجلاً شهماً، محباً، يعتبر نفسه مسؤولاً عن كل فرد من أفراد الأسرة، وقال لي أنه سيرافقني في رحلتي السرية هذه.

وفي اليوم التالي استأجر سيارة يثق بسائقها، وتوجهنا بها الى حدود لبنان من جهة معبر العريضة، قبل المعبر نزلنا من السيارة، التي عادت الى حمص، وسرنا في الليل الدامس باتجاه نهر الكبير الجنوبي. كان لبيبا خبيرا في الأرض فكان بين الفينة والأخرى ينبطح على الأرض واضعاً أذنه عليها، لسماع اهتزازاً ناتجاً عن سير إحدى الدوريات العسكرية عليها المحتملة. وصلنا إلى ضفة النهر وكان علينا اجتيازه إلى الضفة الأخرى الواقعة في

أرض لبنان. كان الوقت في أوائل شهر نيسان من العام 1959. ولم يكن النهر عميقاً، إذ وصل الماء الى وسط أجسادنا لا غير.

تنفسنا الصعداء، وغاب عنا الخوف والهم، وشعرت بالأمان بعد أشهر من الرعب عشتها في العمل السري.

أوقفنا بعد فترة وجيزة باصا متجها إلى مدينة طرابلس، حيث بحثنا عن فندق متواضع، يناسب وضعنا المتواضع. نام شقيقي لبيب هذه الليلة معي، وفي اليوم التالي غادرني الى حمص متوجها لعمله، بعد أن زودني بمبلغ محترم من المال، في حينه.

خرجت من الفندق، بعد نوم عميق وطويل، لأتعرف على بعض شوارع المدينة، التي لم أكن أعرفها، وابتعت بعض الثياب الداخلية والخارجية، وبحثت عن مطعم بسيط، فوجدته في أطراف المدينة، يشوي لحماً ويقدم بعض أطباق المقبلات من حمص ومتبل وسلطة ومخلل الخ. وأصبحت من زبائنه، يومياً لوجبة وحيدة في اليوم.

بعد فترة قصيرة تواصلت، برسالة سرية، مع رفيقي وصديقي المحبب عون جبور، وأعلمته بوجودي في طرابلس، مع عنوان الفندق. سائلاً إياه إن كان يرغب بالانضمام لي، وكان مختبئاً أيضاً في بيت أخواله من آل الصباغ في حمص.لم يمضي وقتاً طويلا حتى قدومه، فتونست به كثيراً. ولم يمض أيضاً وقتاً طويلاً حتى جاءني رفيقاً وجاراً أخر يدعى أسعد دلاور، كنت قد ذكرت إسمه سابقاً.

في طرابلس لي أقارب، أولاد خال والدي من بيت عبود، منهم سامي عبود، صاحب متجر كبير لبيع الجوخ والخياطة أيضاً، رحب بي وبرفاقي، ترحيباً طيباً، وكان يدعونا إلى بيته دعوات متعددة ومتكررة لتناول الطعام والسهر. كانت عائلته مؤلفة من عدة أولاد وبنات وزوجة كريمة محبة، تشعرنا بالدفء العائلي، الذي كنا نفتقده كثيراً في مغتربنا الجديد.

وكان له شقيق، يعمل في شركة نفط العراق بدرجة ممتازة، يدعى أسعد عبود، ما إن سمع بوجودي في طرابلس، واسكن مع رفاقي، حتى جاءني معاتباً عتاباً شديداً، ومؤنباً أيما تأنيب، كيف أسكن في فندق ولي بيتا، طبعا يقصد بيته، في طرابلس.

أنزل حقائبنا، نحن الثلاثة إلى سيارته، متوجهاً إلى بيته، في حي الزاهرة، كما أتذكر، وكان في استقبالنا سيدة من ألطف ما عرفت من الزوجات في حياتي. قامت بتجهيّز مائدة عامرة بأطيب الأطعمة، التي كنا نشتهيها، بعد غياب عن أسرنا وأمهاتنا.

قدموا لنا غرفة مع ثلاثة أسرّة وثيرة للغاية. وأحضر لي دخاناً أو سجائر من ماركة شوستر فيلد، تكفي لأسبوع كامل. كانت زوجته توقظنا بنعومة، حاملة معها الى أسرتنا، أكواب كبيرة من عصير البرتقال، ومن ثم تدعونا لتناول طعام الفطور الفاخر، الذي لم نعتاد عليه في بيوت أهلنا، وفيما بعد الى طاولة الغذاء، ثم العشاء، وهكذا دواليك لفترة أسابيع عديدة. كان وما يزال، اسعد عبود وزوجته، من أكرم الناس الذين قابلتهم بحياتي الزاخرة بمعرفة البشر. حلمت لسنين طويلة أن أرد بعض الجميل إليه، بعد عودتي الى الوطن وتحسن أوضاعي المادية، ولكن الموت قد سبقني باستضافة سيد من أسياد الكرم، إلى أعلى عليين.

استطعنا أن نقيم صلة مع منظمة الحزب في بيروت وطلب الرفاق هناكَ أن نحضر إلى بيروت. ودعنا اقاربي على مضض وسافرنا، الرفيق عون وأنا إلى هناك، بعد أن كان الرفيق أسعد دلاور قد رجع إلى حمص، لأنه لم يستطع فراق أهله، واشتد عليه الشوق وغادرنا. وصلنا الى بيروت ونجحنا بسرعة أن نعثر على بيت الرفيق الحمصي معلم الكهرباء جورج خزام من حي الحميدية، حسب العنوان الذي أعلمونا به.. كان لقاءً حاراً شابه الذكريات الحزينة للملاحقات الأمنية وفراق الوطن.

في اليوم التالي توجهنا، مع الرفيق عبد الكريم نادر الى كمب حاجين، وهو حي قديم، فقير، ضيق الطرقات، مزدحم بسكان كلهم من الأرمن، ذوي الاتجاهات التقدمية، من أعضاء وأنصار وأصدقاء حزب الطاشناك الأرمني، وبعض الشيوعيين. هناك قابلنا مسؤول حزب الطاشناك وعرفناه على أنفسنا، وقام هو بدوره بالترحيب بنا كسكان جدد في هذا المخيم،

شارحاً بسرعة تاريخ الحي معرجاً إلى كونه شارك في الحرب الأهلية عام 1958 ضد كميل شمعون ومن أجل طرد الأسطول الأميركي عن السواحل اللبنانية، وكيف أن عدد من المقاتلين الأرمن الشباب، رفضوا تسليم أسلحتهم، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وظلوا يقومون بأعمال عنفية تجاه رجال الأمن، وتجاه الأرمن الطاشناك، وأحياناً كثيرة تجاه مواطنين عاديين، بغرض فرض خوة، ومن التجار والأغنياء على وجه الخصوص.

ومن أبرز قادة وزعماء أو أمراء حرب هذه المجموعات، ومن سكان هذا الحي أسماء كبيرة يعرفها كل سكان بيروت...أرتين الأسمر، ومماس. وقال لنا لا يمكنكم مساء دخول الحي، بالسيارة، إلا بعد إرسال شيفرة ضوئية معينة، وإلا سوف ينهال عليكم الرصاص من كل جانب، والشيفرة تتغير من وقت لآخر.

وقال ان الرفيق أرتين الأسمر أقل شراسة وعدوانية من مماس. ووعد بترتيب موعد قريب مع الرفيقين. ثم قام بقرع أجراس بيت قريب جداً من موقعنا، فخرج منه رجلا أربعيني طويلا مفتول العضلات، وتكلم معه وأخبره باننا سننضم إلى رفاق سوريين بالسكن في بيته، فسلم علينا بحرارة وأدخلنا إلى غرفة واسعة نسبياً، وجدنا فيها رفاق نعرف بعضهم، والبعض الآخر لا نعرفه .

جرى السلام والعناق والترحيب، ثم غادرنا الرفيق عبد الكريم نادر. وهو رجل لا أستطيع إلا التوقف عنده.

-الفصل الرابع-

كان الرفيق عبد الكريم نادر من سكان مدينة حمص، عمل مدرسا في ثانويات المدينة، عرف بدماثة الخلق، وبتهذيبه الصارم، وباخلاقه الرفيعة، ولم يكن أحداً من أصدقاؤه ومنهم شقيقي لبيب يعرف بانتمائه للحزب الشيوعي. على الاغلب كان من التنظيم السري.

بقي الرفيق عبد الكريم طوال فترة بقائي في لبنان، صلة الوصل بيننا وبين قيادة الحزب ينقل اخر توجهاتها السياسية، وينقل لها مشاكلنا وصعوبات حياتنا.وكان يتردد بشكل دائم علينا يحل مشاكلنا الحياتية، وينقل المساعدات المالية للرفاق العاطلين عن العمل، وهي مقدار ليرتين لبنانيتين في اليوم.

كان بلطفه ودرايته، بمثابة الأب والصديق والرفيق.

وكثيرا ما كنت أذهب لزيارته في منطقة الدورة.

الغرفة التي ضمتنا، عون جبور وأنا كانت متواضعة جدا وقذرة، ننام على فرشات على الأرض، غير مريحة ومتسخة أيضا. كان من سكان غرفتنا ايضا الرفاق طلال الموصلي عبد الحميد الاتاسي وشقيقه المرحوم عفيف، رامز سيدي، والمرحوم رامز غطاس، عون جبور وأنا.كلهم من حمص.

كانت ليالينا، يصعب النوم فيها، عندما نطفيء الضوء كانت تهاجمنا جحافل من الصراصير الحمراء والسوداء.ومن ناحية اخرى كانت اصوات الرشاشات النارية والبنادق الأوتوماتيكية تلعلع في سماء المخيم وتمنعنا من النوم، كانت معارك تدور بين جماعة مماس وبين رجال الشرطة، وأحيانا تشارك مجموعة ارتين الأسمر فيها، وأحيانا تدور المعارك مع جماعات الطاشناق المسلحة.

كان في مدخل كامب حاجبن المتقاطع مع شارع النهر،يقف رجل أرمني يشوي اللحم والمعلاق ،وهو بنفس الوقت يقوم بوظيفة العين والبصاص على كل من يقترب من مدخل الكامب ،فيعطي انذارا معينا ومتفق عليه مع افراد المسلحين.كنت في الليالي التي يهجرني النوم فيها اتجه نحو الشوا هذا وأتناول اللحم المشوي.وكثيرا ما كان ارتين الأسمر

متواجدا،وكان يعرفني بالوجه،فنبدأ بالحديث ،وبعد ليال عديدة نشأت بيننا نوع من المودة، ان لم نقل نوع من الصداقة.ارتين الأسمر كان يتقن العربية إلى حد بعيد،جميل الوجه،وابيض البشرة،طويل القامة،قوي البنيان،رشيق الحركة،رشاشه الى جانبه دوما.

أحيانا وبوسط النهار كان يقطع طريق النهر العريض ويجبر سائق الترام على التوقف، وينادي الركاب بالنزول من عربات الترام،وكلما يرى أحدا من حزب الطاشناق يرديه قتيلا.

ذاع صيت ارتين الأسمر في كل بيروت والناس اصبحت تخاف منه وترهبه.كان كثيرا ما يرسل أحدا من جماعته الى المحلات التجارية في وسط بيروت طالبا منهم دفع مبالغ ليست قليلة،كخوة،وكانوا يدفعون وهم صاغرون،وكذلك كان يفعل مع أصحاب المقاهي والمطاعم والملاهي،وحتى بيوت الدعارة.لم تتمكن قوى الأمن الداخلي من اعتقاله أو كبحه،حتى أن كمال جنبلاط،عرض عليه بان يعفو عنه ويجنده مع جماعته في صفوف الفرقة 16 التابعة للشرطة،وهي الفرقة الأكثر تدريبا وتسليحا وشجاعة، ولكنه رفض.

كان رفاقنا في الحزب الشيوعي اللبناني عوناً لنا في كل القضايا والمساهمة الفعالة في حل مشاكلنا الحياتية وصعوبات اللجوء السياسي.

كان علينا البحث عن عمل،فطلب رفاقنا منا الذهاب الى مقر نقابة عمال المطاعم والملاهي،التي يترأسها الرفيق إلياس الهبر، وبعد لقائنا معه نصحنا بالتوجه إلى السيد جورج عجرم،مليونير وصاحب مسبح وملهى ليلي، نطلب منه أن نعمل عنده. فلبى طلبنا انا وعون جبور ورامز غطاس الذي عينه حارسا في ورشة العمل التي تبني له عمارة ضخمة من عدة طوابق قريبا من فندق سان جورج الشهير، وعون عينه مساعدا لمحاسبه، وهو فلسطيني يعمل عنده منذ سنوات طويلة.

أما أنا فطلب مني العمل على صندوق المحاسبة قرب مطبخ الملهى الليلي، الواقع على البحر،في النهار مسبح، وفي الليل يتحول إلى ملهى ومرقص،تعمل فيه بنات هوى من دول اوروبية مختلفة.كان علي العمل من السابعة مساءا حتى السابعة صباحا، وبأجر ليرتان في

اليوم، كنت أشتري منها سندويشة بخمسة وسبعين قرشا، وبنفس المبلغ أبتاع علبة سجائر، ماركة تطتلي سرت رفيعة، ويبقى معي نصف ليرة، ادفع نصفها أجرة مواصلات، والربع الآخر ثمن جريدة،وثمن شفرات للحلاقة.

في صباح أحد الأيام توجهت إلى غرفتنا في كمب حاجبن، فوجدت قوات من الجيش اللبناني تحاصر الحي،تمنع الدخول أو الخروج منه. فما كان مني إلا أن أتوجه الى منزل الرفيق عبد الكريم نادر، استقبلتني زوجته اللطيفة من آل غندور من حمص، وشرحت لها المأزق الذي فيه. وهدأت من روعي، وأعدت لي مكان للنوم.

الجيش اللبناني مشط الكمب بيتا بيتا بحثا عن ارتين الأسمر ومماس وأعوانهم من المسلحين. وهناك عثروا على رفاقنا وقاموا باعتقالهم ووضعهم في شاحنة عسكرية مكشوفة، وربطوا كل إثنين منهم بكلبجة معدنية. وهنا أحب أن أروي حادثة طريفة وقعت كما رواها لي رفاقي بعد اطلاق سراحهم، بواسطة محام شيوعي لبناني يدعى أدمون عون، الذي إتصل بوزير الداخلية، ريمون اده، طالبا إطلاق سراح الرفاق، وهذا ما جرى.

الحادثة الطريفة هي أن الرفيق عفيف أتاسي كان مرتبطاً مع الرفيق عون جبور، وخلال مسيرة الشاحنة بسرعة عالية،قال عفيف لعون، أظن بأن الشاحنة تتجه نحو الحدود السورية بقصد تسليمنا الى المخابرات السورية، ولهذا أنا سوف أرمي بنفسي من الشاحنة، رغم خطر الموت، الذي أفضله عن الوقوع بأيدي مخابرات النظام، عون قال لك كيف لك ذلك ونحن مرتبطون ببعضنا البعض. بدأ الشد والرد، وسيطر الرعب على رفيقي عون، بحق، وتدخل بعض الرفاق، ومنعوا عفيفا من تنفيذ خطته.

في المساء قدم إلينا الرفيق عبد الكريم نادر وطلب منا أن نضب حوائجنا وكتبنا وفرشاتنا والتوجه إلى حي جديد ،لبيت أحد رفاقنا اللبنانيين،الذي كان مسافرا مع عائلته.غادرنا كامب حاجين الى غير رجعة ولم نعد نسمع أخبار ارتين ومماس.

ولكن بقيت معنا ذكرياتنا الطيبة مع صاحب غرفتنا في كمب حاجين،الذي كان يسكن وعائلته بنفس الدار،ويعمل فيها صانعا للأحذية الرجالية.هذا الرجل الشهم الكريم،لم يكن يتقن اللغة للعربية، ومع ذلك كان وقت فراغه يجلس معنا ويشد من عزمنا ويطلب منا الصبر على الغربة والبعد عن الأهل والوطن.وكثيرا يقدم لنا بعض الأطعمة،وخصوصا السمك الذي يصطاده من البحر،بنفسه.

وعندما نرفض هداياه،كان يقول اقبلوها ـحسن من أن أرميها بالزبالة، وبلغة مكسرة. هذا القول كان يثير غضب بعضا من رفاقنا،وكنت أشرح لهم نيته الطيبة وكرمه المتواضع.وحملنا معنا ذكريات حادثة كادت تودي بحياتنا.

كان ذلك عندما جاء مسؤول حزب الهاشناك الصديق ومعه المجرم المحترف، مماس الذي يحمل رشاشه على كتفه،بقصد التعرف على وجوهنا،حتى لايتصرف معنا كغرباء او مخبرين. وضعنا بعض الكراسي الواطئة على باب البيت ولما حاول مماس الجلوس على أحدها رفس الكرسي بقدمه وأداره على الشكل الذي يديره،فما كان من رفيقنا رامز غطاس إلا أن يشب على مماس، رافعا صوته وهو يشتمه بأبشع الكلمات،استدار ميماس وهو يخرطش رشاشه بقصد الرمي العشوائي.هب المسؤول الأرمني ووقف بيننا وبين مماس يهدء من روعه ويطلب منه عدم الرمي علينا، ووقفنا نحن بوجه رفيقنا رامز نطلب منه السكينة،وتوضيح سبب غضبه وثورته،فأجاب إن ركل أو رفس الكرسي يعني بلغة أهل اليول الحمصي،بان بقية الحاضرين كلهم قوادين.

اليول طريقة متبعة عند بعض القبضيات من الرجال، كأسلوب حياة...كل حركة وتصرف تحمل معان معينة لا يعرفها الا أهل اليول، ولا مجال لشرح تفاصيلها الآن. كانت حادثة مرعبة ودرامكولية لا تنسى.

بدأ سكان غرفتنا يزداد بوصول بعض الرفاق الجدد،وأذكر منهم الرفاق المرحوم طيب تيزيني وفريد الأتاسي ومن ثم زياد إدريس، وبهذا أصبح النوم على فرشاتنا المحدودة أمراً

صعباً، مما فرض علينا النوم على دوريات، البعض ينام في الليل، والبعض ينام في النهار. أصبحت حياتنا تبدو أصعب من الحياة في المعتقل.

كنا نقرأ جريدة الأخبار، جريدة الحزب الشيوعي السوري واللبناني ونتابع معها المستجدات في عالم السياسة، ونقرأ مقالات أمين الاعور النارية في نقد سياسة دولة الوحدة بارتياح،وان كنت أنا غير مرتاح لبعض الشطط في مقالاته، وأحتفظ بهذا النقد لنفسي. في المساء أيضا يقوم بعض الرفاق بلعب الشدة، الورق، بلعبة الطرنيب، وما يصاحب ذلك من الأصوات العالية والشتائم على الحظ أو على اللاعبين، مما يجعل الرفاق البقية في غاية الانزعاج والتوتر، ويضطرهم الى الخروج من الغرفة إلى الجلوس على السطح،وكان أكثرهم تأففا وانزعاجا الرفيقين طيب تيزيني وفريد الأتاسي.

مرت تلك الأيام ثقالا على أنفسنا المتسائلة عن المستقبل وطرق متابعة التحصيل الجامعي،واذا بالرفيق عبد الكريم نادر ينقل لنا بشارة قرار قيادة الحزب،بسعيها الحثيث لتأمين مقاعد دراسية جامعية في دول المنظومة الاشتراكية.

شكل هذا النبأ فرحة عارمة في صفوفنا واعطانا أملاً أكيدا بالخروج من وضعنا الصعب والمأساوي، الذي كنا نعيشه في بيروت.

بدأت أنا والرفيق والصديق عون جبور نبحث عن طريقة لتأمين جوازات سفر للسفر القادم.وأخيرا لجأت لقريبي في مدينة طرابلس أطلب المساعدة. فلم يطل بنا الانتظار، حتى أعلمنا بأنه تكلم مع صديق قديم له في مدينة بشري يعمل كمختار هناك، ووجد له مخرجا قانونيا لتأمين حصولنا على الجنسية اللبنانية،ومن ثم امكانية أكيدة باستصدار جوازات سفر. والعملية تتم بالاتصال بعائلتين ضعيفتا الحال والطلب منهما تقديم طلب الى دائرة النفوس في مدينة بشري، يدعون فيها بأنهم أغفلوا تسجيل أبناء لهما في حين ولادتهم وأنهم يرغبون بتصحيح الامر وتسويته.

قمنا عون وإنا بتأمين المبلغ المطلوب وجرت الأمور بسلاسة لم نكن أبدا نتوقعها، وحصلنا على هويتين لبنانيتين قانونيتين.

هوية عون كانت بإسمه الحقيقي عون جبور. أما بالنسبة لم يجد مختار بشري عائلة باسم نسطه، ولكنه عثر على عائلة باسم الفخري،وهكذا كان إسمي اللبناني جون الفخري.

بدأت عملية التسفير تباعا لرفاق غرفتنا،منهم من سافر إلى براغ ومنهم من سافر إلى موسكو أو صوفيا.

في اليوم الثاني عشر من شهر شباط 1959 سافرت أنا وعون من مطار بيروت على الشركة السويسرية باتجاه زيوريخ .

كان يرافقنا في الطريق الى مطار بيروت رفيق لبناني أرمني يدعى أبو علي، وهناك في بهو المطار كان ينتظرنا الرفيق واصل الفيصل.سألناه عن عنوان في برلين نتصل به حين وصولنا، فقال لا داعي لذلك،الأمور مرتبة وستجدون من يستقبلكم في مطار برلين فلا تقلقوا ولا تخافوا، المهم أن تخرجوا الآن من المطار دون أن يكتشف أمن المطار إنكم سوريين.وودعنا طالبا لنا النجاح في حياتنا الجديدة في جمهورية ألمانيا الديموقراطية.

كانت عملية التفتيش الجمركي والأمني محرجة ومليئة بالخوف من أن يكتشفوا أمرنا من خلال لهجتنا الحمصية البعيدة عن لهجة أهل بشري.

كان هناك توترا عظيما يسيطر على أرواحنا الشابة، والتواقة الى الخروج من جهنم بيروت، الى فضاء الحرية وبناء المستقبل.

خرجنا من هذه التجربة الصعبة بنجاح، وصعدنا الطائرة، ولكن نوع من الخوف كان ما يزال يسيطر علينا.ما إن أضحت الطائرة تعلوا في الجو حتى طلبنا من المضيفة بأن تحضر لنا ما تيسر من الويسكي،وشربنا كؤوس الفرح والفرج.

طارت بنا الطائرة الى برن عاصمة سويسرا، ومن هناك الى مطار زيوريخ، حيث كان علينا المبيت هناك ليلة واحدة،وفي اليوم التالي الى براغ ومن ثم إلى برلين الشرقية.

شركة الطيران قامت بإيصالنا إلى الفندق المحجوز به من طرفها. في الليلة الليلاء هذه لم نستطع النوم ونحن نغرق بالفراش الوثير وبالمخدات والألحفة من الريش، الأمر الذي لم يكن لنا خبرة فيه في بيروت،حيث كانت فراشنا القاسيات وحشوتهم من قشر الموز المجفف.

في صباح اليوم التالي توجهنا الى براغ دون أن يكون على جوازاتنا تأشيرة دخول، مما كان يثير التوجس في نفوسنا ايضا.هناك كان لدى أجهزة الأمن علما بقدومنا،وبعد ساعتين

من الإنتظار صعدنا الى طائرة صغيرة غير نفاثة تهبط وتعلو في الفجوات الهوائية مما يثير الخوف أيضا،وخصوصاً ونحن نركب الطائرات لأول مرة في حياتنا.

وصلنا مطار برلين الشرقية في مساء اليوم التالي،ونحن لم نحصل أيضا على تأشيرة دخول ،ووقفنا محتارين إلى أين نذهب وكيف نمر من حاجز الأمن،ونحن في حيرتنا هذه،وإذ برجل ألماني يتقدم نحونا ويقرأ أسماءنا. فشعرنا بالاطمئنان والراحة المتناهية.

وقف الرجل أمامنا خطيبا باللغة الانكليزية التي كنت وقتها أتقنها، مرحبا بنا ضيوفاً أعزاء على دولة ألمانيا الديموقراطية، دولة العمال والفلاحين، مشيداً بنضالنا في مواجهة الاستبداد والإرهاب السلطوي الخ.وقمت بكلمة مقتضبة بشكره وشكر دولة العمال والفلاحين، بقيادة الحزب الاشتراكي الموحد. وبعدها وبدون أي تفتيش جمركي أو أمني، ركبنا سيارة سوداء متوجهين نحو مستقبل أبيض ومضيء.

-الفصل الخامس-

سارت بنا السيارة برفقة السيد كين من مطار برلين الشرقية،عبر طرقات مظلمةً محاطة بغابات كثيفة،وسط استغرابنا وتوجسنا. إلا أن السيد كين وضح لنا بأننا متوجهين إلى بيت تابع للنقابات الالمانية يستضيف النشطاء النقابيين للاستراحة ولقضاء الاجازات السنوية، وهناك ينتظرنا الرفاق السوريين الذين وصلوا قبلنا وعلى دفعات متقاربة.وهذا البيت يقع على بعد ثلاثين كيلو مترا من برلين.

المهم وصلنا هناك وكانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءا، وتفاجئنا باستقبال حافل وحار من رفاق كنا لانعرف اكثريتهم،فيما عدد بسيط منهم من مدينة حمص، طلال موصلي،كميليو مقدسي، ورامز غطاس.كان عددهم يتجاوز العشرين رفيقا من كل مدن ومحافظات القطر السوري.

تناولنا وجبة العشاء جماعة،وكان طعام العشاء أول احتكاك لنا على الطريقة الالمانية،خبز ألماني داكن اللون على شكل شرحات،وقطع من الزبدة،وشرائح لحم مجفف وشرائح من الجبن الأصفر وقليل من قطع البندورة،مع الشاي.

بعدها استلمنا غرف نومنا في الطابق الأول من هذا البيت الأنيق المريح.

كان للبيت مديرا ألمانيا لطيفا مهذباً لكنه جديا صارما،ولا يتكلم سوى اللغة الألمانية.وكانت ثلاثة سيدات يقمن بخدمتنا ونظافة غرفنا وأمور غسيلنا الخ.من بينهن شابة جميلة،أنيقة،لطيفة ،ابتسامتها مستمرة علىَ محياها ،تقوم بخدمة طاولات الفطور والغداء والعشاء،واكتشفت مع الوقت أن عددا كبيرا من الرفاق واقع بحبها ويظن البعض منهم بأنها هي واقعة في غرامه أيضآ،وهي ترضي الجميع بنظراتها اللطيفة.هذا شكل تنافس وتوتر بين بعض الرفاق.

وهناك توتر أخر لمسته يقوم على المزاحمة على قيادةٍ الفرق الحزبية وخصوصا بين الرفيقين طلال الموصلي ومحمد العطري،وكلاهما كانا من طلاب الجامعة في دمشق.

بعد أيام قلائل وصل من بيروت أيضا ثلاثة رفاق من حمص أيضا وهم زياد إدريس والطيب تيزيني وفريد أتاسي .

وصل عدد الفريق الى 28 رفيقا.

وهم حسب الترتيب العشوائي ومن زوايا الذاكرة أيضاً.

نذير دباغ،من الدرباسية،عبد الله حنا من دير عطية، ابراهيم طعمة من قرية قطينة بجوار حمص، زياد إدريس من مدينة حمص،اسماعيل سراج من الجزيرة السورية، طلال موصلي من حمص، عبد الخالق سعادة من اللاذقية،محمد العطري من مدينة حلب، عبد القادر محفوظ من مدينة حلب، فواز الجابر من محافظة السويداء، أديب كوا من أصول حورانية، كمال زبيدي من مدينة حلب،فريد أتاسي من حمص، حنا عيسى من الجزيرة السورية، رزوق طولاب من حلب، رامز غطاس من حمص، الطيب تيزيني من حمص، كميل مقدسي من حمص، سلطان أبازيد من درعا، شكيب رزق من قرية صحنايا، حبيب الشايب من صيدنايا.

بعد أيام جاءنا الرفيق أحمد فايز الفواز من برلين وكان يدرس الطب هناك، وهو مسؤول المنظمة الحزبية الطلابية في كل ألمانيا، ورحب بنا بإسم الحزب وألقى حديثا سياسيا شرح فيه الأوضاع السياسية والمعيشية التي يعاني من وطأتها الشعب السوري عموما والظروف الصعبة التي يمر فيها حزبنا الشيوعي السوري. وكلف أيضآ الرفيق عبد الله حنا، بقيادة مجموعتنا على أن يستعين بمن يراهم أكفاء من الرفاق بهذه المهمة،وتمنى لنا مستقبلاً طيباً وودعنا.

وبعد أيام قلائل دعاني الرفيق عبد الله حنا مع الرفيق عبد القادر محفوظ لعقد أول اجتماع لقيادة هذه المنظمة. تدارسنا وضع كل رفيق على حدة ووضعنا خطة للعمل لفرض النظام والانضباط على الجميع، بظروف معقدة من حيث تكوينات المجموعة،من حيث الأعمار المختلفة، والأصول الاجتماعية، والثقافية المتعددة.

كان الرفيق عبدالله رجلا حازماً متزمتاً الى حد بعيد في تطبيق النظام الذي وضعه هو، من حيث ساعات الخروج من البيت وساعات القدوم، وطلب الإذن بزيارة القريتين القريبتين من إقامتنا، وموعد الاجتماعات الحزبية وتنظيم أمر المداخلات ومدتها الخ.

كانت النقابات تنظم لنا كل نهاية أسبوع رحلة سياحية ثقافية إلى عدد من المدن الألمانية بإشراف الرفيق كين.وأهمها رحلة إلى مدينة فايمار،مدينة أول مسرح وطني ألماني،مدينة غوته وشيلر.وحضرنا مسرحية هناك رغم أننا لم نكن نعرف اللغة الألمانية، ونمنا في فندق فخم ،كان المجرم النازي أدولف هتلر قد أقام فيه أيضا برقم 7 للغرفة، نفس الغرفة التي نام فيها الرفيق محمد العطري، الملقب بـ "أبو العطور".

وبالقرب من مدينة فايمار يقع معسكر اعتقال كبير ضم الآلاف من الشيوعيين والاشتراكيين والمعارضين الألمان واليهود والغجر والأسرى الروس والبولنديين وغيرهم، قمنا بزيارته متجولين بمهاجع وأقسام المعسكر كلها، والصدمة الأكبر كانت حين رأينا أفران الجثث المتعددة والتي كانت تعمل ليلاً ونهاراً، وزرنا ايضاً قاعات الموت، عندما يقوم الحراس النازيين بدفع المعتقلين الأبرياء إليها، على أنها غرف استحمامات، وكان بالفعل يتدلى من سقوفها دوشات معدنية. وعندما تمتلئ القاعة تبدأ غازات الموت تهطل من الدوشات.

وزرنا أيضاً المهجع الذي كان يقيم فيه الرفيق إرنست تيلمان، زعيم الحزب الشيوعي الألماني، الذي تعرض لعذابات شديدة، من فرق التعذيب النازية بغرض انتزاع معلومات عن تنظيمات حزبه، ولما فشلوا بذلك قاموا بقتله بالرصاص.

وتركت هذه الزيارة للمدرسة، في نفوسنا أثراً كبيراً سيبقى مرافقا لوعينا طول العمر، في حثنا الدائم على معاداة النازية والفاشية، وكل أشكال الإستبداد والديكتاتورية.

وبعدها زرنا مدينة دريسدن التاريخية، عاصمة ملوك السكسون وأبرزهم أوكست القوي، صاحب العمران والقوة العسكرية بنفس الوقت. قمنا بزيارة المتاحف الغنية بأجمل اللوحات

الأوروبية، وقمنا بحضور باليه بحيرة البجع في دار الأوبرا، التي تعتبر بذاتها من روائع الفن المعماري.

كانت مدينة دريسدن لا تزال تعاني من آثار الحرب العالمية الثانية،وخصوصاً من ليلة الرابع عشر من شهر شباط 1945،عندما قام الطيران الحربي الأميركي بتدمير المدينة وقتل ثلاثين ألفاً من سكانها الأبرياء، همجية ليس من بعدها همجية، وذلك رغم أن الحرب كانت قد حسمت لصالح قوى التحالف الدولي ضد ألمانيا الهتلرية. كان الهدف من هذه العملية البشعة ترك المدينةَ مهدمة والتي سيدخلها الجيش الأحمر السوفياتي والتي ستقع ضمن دائرة نفوذه.

وهذا كان أيضا بالنسبة لنا نحن الشباب درساً عملياً على الأرض، كيف أن الامبريالية الاميركية لا تهتم بأرواح البشر ولا بحضارة الحجر عندما يكون الهدف يخدم مصالحها ويضعف من قوة المنافس المنتظر على الساحة العالمية، الاتحاد السوفياتي.

وكذلك قمنا بزيارة عدد من المدن الصناعية وتعرفنا على الجهود الكبيرة التي تبذلها الدولة الإشتراكية لبناء القاعدة المادية لمتابعة تحصين البلد ضد مؤامرات الغرب المستمرة.

كان الرفيق الألماني السيد كين يرافقنا ويرعانا في كل هذه الزيارات. ومنها أيضاً زيارات إلى المولات التجارية ومحال الأزياء الرجالية، وكان يقول لنا ادخلوا وانتقوا ما تحتاجون إليه وما يروق لكم من ألبسة داخلية وخارجية، وخصوصاً الشتوية، والاحذية، والقمصان والبيجامات الخ.. ويقوم بنهاية حملة المشتريات بالتوقيع على ورقة من قبل المتجر، بكل بساطة وسرور.

وبعد فترة قصيرة من تواجدنا في بيت الاستراحة هذا كلفوا معلمة لغة ألمانية باعطائنا دروس أولية باللغة الألمانية، وكانت سيدة ذكية وصبورة. وبعدها كلفوا مدرساً للقيام بهذه المهمة، رجل متقدم بالعمر متقاعد، يعشق لغته ويجلها ويعلمها لنا برغبة داخلية عميقة.

استمرت إقامتنا في هذا البيت الجميل، الذي يقع على ضفاف بحيرة اسمها بلوسين، محاطاً بأشجار الغابات الباسقة، إلى نصف شهر نيسان، وعندها قام الرفاق في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الموحد باعلامنا بضرورة أن نتعرف على الطبقة العاملة وكيف تعمل وتناضل وتعيش على الأرض، قبل أن ندخل إلى الجامعات. وتم توزيعنا بقلم واشراف الرفيق عبد الله حنا. على ثلاثة مجموعات، تلتحق بثلاث مصانع كبيرة في ثلاث مدن مختلفة.

وقام الرفاق الألمان قبل ذلك بتنبيهنا بأن علينا أن نقول لمن يسألنا عن هويّتنا بأننا لبنانيون وليس سوريون.

يرجع السبب بذلك، الى كون جمهورية ألمانيا الديموقراطية، كانت تسعى للاعتراف الدبلوماسي من قبل الجمهورية العربية المتحدة. ووجودنا كمعارضين سياسيين على أرضها وبضيافتها، قد يشوش ويمنع هذا المسعى،الذي يهمهم نجاحه الى أبعد الحدود.

توجهنا عبد الله حنا وطلال الموصلي ومحمد العطري وفواز الجابر وزياد إدريس،وأنا إلى مدينة كارل ماركس، وهي الآن بعد الوحدة الألمانية رجعت إلى اسمها القديم كمنيتس،وسكنا في بيت بسيط مع عائلة ألمانية.وفي اليوم التالي نقلونا إلى المصنع الذي علينا أن نعمل به.استقبلنا مدير المصنع،يرافقه المسؤول الحزبي،مرحباً ومتمنياً أن نتعلم بعض المهارات الصناعية، وأن نقيم علاقات طيبة مع العاملين.المعمل كان ينتج آلات للخراطة المعدنية الدقيقة جداً، ومتعاقد مع الإتحاد السوفياتي للتصدير إلى معامل الصناعة هناك.

كان علينا الاستيقاظ من النوم الساعة الخامسة والنصف صباحا، للتغسيل والحلاقة واللباس وتناول الفطور،ثم الركوب بالباص الى المصنع البعيد عن بيتنا نصف ساعة على الأقل بالباص طبعا. وكان علينا أن نستبدل ملابسنا ،بثياب المصنع الزرقاء، ونبدأ بالعمل الساعة السابعة صباحاً إلى الرابعة مساءً، يتخللها فرصة الفطور الثاني،وهذه عادة عمالية تلتزم بها كل المعامل والإدارات، في الساعة التاسعة والنصف، يتناول الفرد فيها ما قد جلبه معه الى العمل من سندويشات مع القهوة طبعا. وفي تمام الساعة الثانية عشر ظهرا يدقق الجرس

معلنا فرصة الغداء.نذهب لتناوله في مطعم المعمل وهي وجبة ساخنة، مؤلفة عادة من قطعة لحم مطبوخ وعليها صلصة ،وجنبها بطاطا مسلوقة ساخنة طبعاً.كانوا لا يستخدمون الأرز ولا الخبز على الاطلاق.

كنا نتوقف عن العمل الساعة الرابعة بعد الظهر ثم نتوجه الى غرفات الحمام لغسيل أجسادنا من بقايا الزيوت المعدنية والغبار الصناعي ونخرج من باب المصنع حوالي الرابعة والنصف، لنسرع إلى شراء ما نحتاجه لطعام العشاء وللفطور في الثاني. نحضر طعام العشاء وننتهي منه وتكون الساعة قد قاربت الثامنة مساء،ونكون نحن متعبين بل في غاية التعب،فنلجأ إلى أسرتنا ونتحدث قليلاً ثم نغط في نوم عميق وهكذا كل يوم دواليك.

إدارة المصنع فرضت علينا في البداية أن تكون رواتبنا ،مثل بقية العمال،تبعاً للانتاج حسب القطعة المنجزة.ولأن كفاءتنا وتدريبنا كان ضعيفا،بالنسبة لبقية العمال،فإن رواتبنا ستكون منخفضة جدً، وهذا ما جرى في الشهر الاول، مما اضطرنا للذهاب إلى مكتب أمين الحزب في المصنع وشرحنا له الموقف، وأبدى تفهماً كبيراً ووعدنا بأنه سوف يعمل مع الإدارة لتعيين راتب مقطوع شهري بغض النظر عن كمية الإنتاج.

بعد فترة وجيزة، ونتيجة لنقص فيتامين سي في غذائي ،ظهر عندي التهاب باللثة التي بدأت بالتهتك مع أوجاع شديدة، أرسلوني لعند طبيب أسنان، وكان طبيباً جاهلاً على ما يبدو، لأنه بدأ يعالجني بمحلول معلم لا غير ولم يدرك بأن مرضي يرجع إلى سبب عام، وليس موضعي، وهو نقص في فيتامين سي، بقينا على هذه المعالجة القاصرة عدة أيام، حتى زالت لثتي من الوجود، ولم أعد أستطيع فتح فمي. بعد فترة جاء عضو في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الموحد، إلى المصنع ليحقق عن أسباب عجز المصنع عن انجاز مهماته بالتصدير، المتفق عليه، إلى الإتحاد السوفياتي.

لما رآني بهذا الوضع وسأل من أنا وعرف بأني شيوعي من سوريا،أعمل مع رفاق لي بهذا المصنع مؤقتاً،انتفض غضباً ً بوجه سكرتير الحزب، مستغرباً أمر اهمالنا لهذه الدرجة المخزية.اتصل فوراً بمشفى المدينة المركزي، وأمر جميع أطباء المشفى بالبقاء بانتظار

قدومه. ركبنا في سيارته الى المشفى وأمر بفحصي لمعرفة نوع المرض وأسبابه، ولمن يتبع في علاجه من الإختصاصات الطبية.التشخيص جرى سريعاً وواضحاً وبدأ الأطباء فوراً بعلاجي، عن طريق حقني بالوريد بكميات عالية من فيتامين سي وبقيت في المشفى عدة ايام، حتى تحسن وضعي وبدأت أستطيع فتح فمي وتناول طعامي، وبعدها عدت الى العمل في المصنع من جديد، وظل الرفيق المركزي يتابع الاهتمام بنا ويسأل عن أوضاعنا، الى الحد الذي طلب من أمين الحزب بالمصنع أن يؤمن لنا كل يوم كيساً من الفواكه يشمل كمية كبيرة من الليمون والبرتقال والتفاح والموز وغيره من الفواكه، ولما قال له أمين الحزب بأن هذه الكميات غير متوفرة بالسوق،نهره وقال متوفرة ولكنها تذهب إلى الفنادق الخمس نجوم التي يذهب إليها الأغنياء من بقايا البرجوازية، وبعض مدراء المصانع. وفعلا كان علينا ان نحمل كل يوم شبكة مليئة بالفواكه الى البيت، تفوق، بأضعاف، عن حاجتنا.

مضت هذه الأشهر الأربعة الصعبة والمريرة كالكابوس بالنسبة لي على الأقل، مقارنة بالأشهر السابقة من الدلال وكرم الضيافة والسياحة والرفاهية. ففي منتصف شهر آب، ذهبنا الى منطقة جبلية عالية شهيرة برياضة التزلج، ونزلنا، بضيافة اتحاد نقابات العمال، بفندق فخم جداً، وقضينا فيه مدة أسبوعين كاملين، مع بقية رفاقنا الآخرين الذين جاؤوا من بقية المدن، التي توزعنا عليها. كانت فترة جميلة جدا كإجازة بعد فترة العمل المرهق.

فرحنا بلقاء بعضنا البعض، وكانت فرحتي أكبر بلقاء صديق العمر وحبيب الروح وأنيس النفس عون جبور،الذي لم أنفك عنه منذ الطفولة إلا خلال فترة العمل هذه.

وبالعودة الى الفندق فكان يقع في بلدة صغيرة مشهورة في الشرق والغرب الألماني اسمها **Oberhof** وكان اتحاد النقابات يستقبل ضيوفه الأجانب من كل اقطار العالم، ولذلك كان طعامه ذات نوعية عالية ومتنوع المذاق. وفي مساء كل يوم يقام حفل موسيقي راقص، تشارك فيه جميلات الصبايا الالمان من المدينةَ ذاتها، وكان الشراب من نبيذ وبيرة وغيرهما من المشاريب الروحية مفتوح لنا بدون حساب ولا حدود.

هنا أريد أن أروي قصتين. الأولى في احدى الأمسيات او بالأصح الليالي وكنت أجلس على طاولة أصدقاء منهم الرفيق المرحوم الدكتور سلطان ابا زيد نشرب الخمر،واذا به يهمس في أذني بأنه يشعر بدوخة سكر ومضطر لأن يستفرغ،فأخذت من يده مسرعا الى حمام المطعم ووضعت رأسه على حافة المرحاض الافرنجي، وبدأ بالاستفراغ، فما كان مني سوى أن أضرب رأسه بقبضة يدي، وهو يلتفت مستغربا متسائلا عن السبب في ذلك، فكنت أقول له: أنت بفعلك هذا وعدم مقدرتك على تحديد كمية الكحول التي تتحملها.. أهنت الشراب وبهدلته.

والحادثة او الرواية الثانية... كنا نجلس في إحدى الليالي الى طاولة ضمت قيادي من الاتحاد المغربي للشغل، والرفيق المرحوم رامز غطاس، الذي كان يراقص صبية حسناء في كل جولة رقص، أملاً بتطبيقها باللغة العامية، وإذا بشاب إفريقي أسود يسبق رامزاً ويطلبها للرقص وتستجيب لطلبه، وخلال الرقص بدت تضع رأسها على كتفيه، ورامز يغضب ويشتم، فلاحظ ذلك صديقنا المغربي هذا الأمر، وما إن عاد الزنجي الى مقعده، حتى قام النقابي المغربي متوجهاً إليه ليصفعه على وجهه صفعات حادة وقوية ويركله بساقه ويرميه أرضا وهو يصرخ به كيف لك أيها العبد الذليل ان تأخذ هذه الصبية من يدي سيدك العربي، وأنا في بيتي العشرات من العبيد أمثالك يخدموني ويقبلون حذائي.

نحن استغربنا هذا الموقف من نقابي تقدمي يساري ولم نستطع تفهمه.

بعد انتهاء إجازتنا الجميلة هذه توجهنا جميعاً إلى مدينة لايبزغ الشهيرة للدخول في معهد لتدريس اللغة الألمانية، ولتبدأ صفحة جديدة من رحلة العمر.

-الفصل السادس-

وصلنا إلى مدينة لايبزغ الشهيرة في تاريخ ألمانيا، فيها جامعة تأسست قبل 850 سنة،وفيها تقع اول مطبعة في العآلم،ويقام فيها في السنة الواحدة معرضان،تجاري وصناعي في الربيع والخريف،بالاضافة الى معرض الكتاب.وفيها أيضا آثار لتواجد الأديب الألماني الأكبر غوته، مثال القبو الحانة كان يزورها لتعاطي خمرته الممزوجة بالماء والمعروفة،اي الحانة،عالميا تحت اسم **Auerbachs Keller**.

وفي بداية الستينات بنيت في لابزيغ دار أوبرا كبيرة بعد تهدم السابقة بقنابل الحرب العالمية الثانية.

التحقنا بمعهد هيردر لتعليم اللغة الألمانية، وأقمنا في بيت للطلبة قريب جدآ من المعهد الذي يشكل المكان الرئيس لتعليم اللغة لكل طالب أجنبي يرغب بالدراسة في ألمانيا الديموقراطية.

كان فريقنا من أكبر الفرقاء الأجانب في المعهد وكنا لا نزال نطلق على أنفسنا أننا من لبنان بناء على توصية رفاقنا الألمان حرصا على علاقتهم الرسمية مع الجمهورية العربية المتحدة.

كان الدوام من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثانية عشر ظهرا ثم فرصة غذاء تمتد حتى الثانية بعد الظهر نعود بعدها إلى الدرس حتى الرابعة بعد الظهر. كان المطعم يقع في نفس بناء مسكننا ويقدم ثلاث وجبات يومياَ. طعام الغذاء كان فيه حرية الخيار لثلاثة أطباق مختلفة وذلك لقاء سعر يكاد يكون رمزيا.

في الفصل الأول من أيلول حتى شباط كانت الدروس كلها منصبة على اللغة ...قواعد تمارين ...محادثة وكتابة إنشاء. وفي الفصل الثاني بدأنا نتلقى دروسا تتعلق بمواد علمية من علم الاحياء لمن يرغب بدراسة الطب وفيزياء ورياضيات لمن يرغب بدراسة الهندسة وهكذا.

وعدد من الرفاق الصغار السن الذين لا يحملون شهادة البكالوريا،كان عليهم أن يدرسوا في المدرسة الشعبية العليا لتحصيل هذه الشهادة التي تأهلهم لدخول الجامعة ولهذا لم نتمتع بعطلة دراسية على الاطلاق.

في بداية الفصل الثاني أيضآ، خُصّص لنا أستاذا رقيقا، مهذبا، ودودا، مثقفا ماركسيا يناقش معنا في الساعة الأولى الموضوعات الأساسية المطروحة في جريدة الحزب الاشتراكي الموحد ألمانيا الجديدة وفي مقدمة هذهِ الموضوعات كانت الأوضاع في جمهورية الكونغو ونضالات القائد الكبير لومومبا، الذي كان يناضل من أجل استقلال وحرية بلاده من الاستعمار البلجيكي الشرس.

وبعدها في شهر كانون الثاني من العام 1961 جرى اختطافه وقتله على يد العميل موريس تشامبي، على أثر ذلك أطلق اسم لومومبا على معهد اللغة وعلى اسم الشارع، الذي يقع عليه المعهد وأقيم له تمثالا في نفس الشارع.

كان راتب المنحة المجانية، الشهري، يبلغ 280 مارك، ندفع مبلغ 10 مارك أجرة شهرية للسكن ومثله اشتراكا حزبيا. وكنا منظمين في فرق حزبية تضم 5الى6رفاق، تعقد اجتماعا دوريا كل اسبوع، يجري فيه الحديث عن السياسة وموقف الحزب من الأحداث، وعن الحملة المستمرة من أجل إطلاق سراح الرفيق فرج الله الحلو، علما بأن قيادة الحزب كانت على معرفة أكيدة باستشهاده، وهذا شيء لم أرضى عنه بقرارة نفسي، وشكل لي أزمة داخلية، ولكن هكذا كانت تقتضي السياسة.

ويجري في الاجتماع بحث الأوضاع الدراسية لكل رفيق على انفراد، وحث الجميع على الإجتهاد، ومساعدة من يحتاج لدعم أدروس اضافية من قبل الرفاق المتمكنين.

كانت قيادة الحزب قد اتخذت قرارا ينص على ضرورة أن تكون الدراسة الجامعية لكل الرفاق محصورة بالدراسات العلمية، هندسة، فيزياء، كيمياء، الخ.

كنت أميل إلى دراسة التاريخ أو الفلسفة أو علم الاجتماع والسياسة وكان هذا أمرا مرفوضا فتوجهنا، أنا وبعض الرفاق بسؤال الى القيادة عن امكانية دراسة الطب فكان الجواب لا مانع.

كان الرفيق طيب تيزيني،الذي كان يرغب أيضا بدراسة الفلسفة مضطرا مثلي لان يدخل الى كلية الطب مع عدد لا بأس به من الرفاق. ولكن وفي نهاية الفصل الأول، أصبح مقتنعا، عمليا، بأنه غير مؤهل على الاطلاق لهذه الدراسة، وانتسب بعدها باستثناء إلى كلية الفلسفة. كان الطيب رجلا مجتهدا دؤوبا، منكبا على القراءة والدرس. أذكر أنه أمضى مدة ثلاثة شهور يقرأ في كتاب أصول الماركسية اللينينية. كان يحفر بالصخر كل حياته العلمية.ولم يكن مهتما بالعمل الطلابي، ولم يكن يسعى الى مناصب حزبية.

في بداية الإنتقال إلى الجامعة كان علينا أن ندرس اللغة اللاتينية، بشكل مختصر، وبالجانب الذي يتعلق بدراسة الطب.

خلال عام كامل تعلمت اللغة الألمانية بشكل متقن وحصلت على بكالوريا ألمانية، وانهيت دورة لتعلم اللاتينية المختصرة. ولم أتمتع بإجازة صيفية طبعا.

في شتاء العام 1960 على العام 1961، مرت على مدينة لا يبزغ موجة صقيع غير معهودة وصلت فيها درجات الحرارة الى عشرين تحت الصفر وأحيانا أكثر مترافقة بكميات عالية من الثلج مما أدى الى توقف الدراسة، وإغلاق المدارس والعديد من المؤسسات والشركات توفيرا للطاقة. كانت الثلوج متراكمة على الطرقات والأرصفة، بشكل يعيق السير. قامت منظمتنا الحزبية بالتطوع إلى جانب الشبيبة الألمانية الحرة لتنظيف الشوارع والأرصفة من الثلج والصقيع لمدة إسبوع، مما ترك أثرا طيبا لدى رفاقنا الألمان.

بدأ الفصل الأول بكلية الطب بدراسة التشريح، والفيزياء البيولوجية والكيمياء البيولوجية وعلم الوظائف وهو علم هام جدا بثقافة الطبيب.

كنا 600 طالب مقسمين الى قسمين وكل قسم موزع على فصائل عديدة تضم كل منها 20 حتى 25 طالبا. يجتمعون لبحث أوضاعهم الدراسية والسياسية وترتيب مواعيد الفحوص.

من الجميل أن اذكر أن هذا الفصيل الذي يضم أيضا طلابا أجانب، كان يسمي طالبا ألمانيا بصفة الراعي يساعد كل طالب أجنبي خلال فترة الدراسة.

كان من نصيبي شاب ألماني يدعى هايلمان. من صفاته الجدية في كل المواقف لا يعرف الضحك ابدأ ولا يشارك بأي حديث إجتماعي،متمكن من الفيزياء والرياضيات منكب على الدراسة بشكل دائم.كان يشرح لي أحيانا بعض الامور المعقدة والتي كان لها علاقة بعلوم الفيزياء .

في بداية الفصل الأول انتقلنا عون وأنا إلى بيت للطلبة مشاد حديثا قريب جدا من كليات الطب ويضم طلابا من كل بلاد العالم ومنهم أردنيون، وعراقيون، ولبنانيون، وكلهم تقريبا كانوأ شيوعيين يدرسون على حساب جمهورية ألمانيا الديموقراطية. في هذا البيت الحديث كانت أغلب الغرف مجهزة لطالبين، ومن الطبيعي أن يكون صديقي عون شريكي في هذه الغرفة.

في هذا البيت كان هناكَ مكتبا يمثل عمادة الجامعة، ووزارة التعليم العالي يرعى أمور الطلاب من كل النواحي الدراسية والاجتماعية ويتقبل الشكاوى والطلبات ويرأسه رجل إسمه فيشر، صاحب قرار ودراية بكل أمور عمله منفتح ومتفهم.

في هذه السنة قمنا بتأسيس أول رابطة للطلاب السوريين في لايبزيغ وكنت انتخب دائما لعضوية هيئتها الإدارية، وأحيانا لرئاستها.

وعلى النطاق الحزبي لابد من ذكر أنه في لايبزيغ كان هناك منظمة حزبية صغيرة قبل حضورنا نحن إلى هنا يرجع تأسيسها إلى العام 1957، بمبادرة من الرفيق خير الدين جبريني، والتي كان من عدادها على ما أذكر الرفاق جورج هزيم ديب ومروان بالي وأحمد رسول وأخرين. تم ضمهم إلى المنظمة وتوزيعهم على فرق حزبية متعددة.

على رأس هذه المنظمة الكبيرة نسبيا تشكلت قيادةٍ، على الطريقة الستالينية البكداشية، أي بدون انتخابات أو مشاورات مع كل الرفاق، مؤلفة من الرفاق عبد الله حنا، رئيسا، وسلطان ابازيد، وزياد إدريس وجون نسطه، وتكليف الرفيق عون جبور بمهمة مسؤول مالي، نظرا لدقته ومهارته في هذا المجال، دون أن يكون من عداد الهيئة القيادية تلك. كانت الفرق الحزبية تنتخب أمينا لها ومسؤولا ثقافيا وكذلك ماليا وتكتب تقريرا عما دار في اجتماعاتها الدورية وكان أعضاء قيادة المنظمة يتوزعون بنفس الوقت على عضوية الفرق الحزبية هذه لضبط الأمور كليا.

كان رفاقنا من مجموعة لبنان قد توزعوا بقصد الدراسة على عدة مدن ألمانية اهمها دريسدن وروستوك وبرلين وانتظموا هناك حزبية. ولهذا كان هناك لجنة حزبية عليا تشرف وتقود كل المنظمات في ألمانيا الديموقراطية وكانت مؤلفة على ما أذكر من الرفاق الدكتور احمد فايز الفواز، رئيسا، وخير الدين جبريني، وعبد الله حنا، ومطانيوس عقل.

كان على طلاب الجامعات الالمانية القيام في شهر أيلول من عام بمساعدة الجمعيات التعاونية الفلاحية على قطاف البطاطا الغذاء الرئيسي وتجميعها باكياس، ليتم توزيعها على المدن الالمانية المختلفة.

لم يكن هذا الواجب مفروضا على الطلاب الأجانب. ولكن منظمتنا الحزبية قررت بأن يقوم كل الرفاق بالتطوع والمشاركة في هذا العمل.

-الفصل السابع-

انضممنا إلى زملائنا الألمان وسافرنا وإياهم إلى قرية بعيدة نسبيا عن مدينة لايبزغ، واستقبلنا عمدة القرية مع رئيس الجمعية التعاونية الفلاحية، مرحبين وشاكرين لنا تطوعنا لمساعدتهم في عملية قطاف البطاطا لهذا الموسم، وتم توزيعنا إلى مساكن متناثرة في القرية.مساكن واسعة ومريحة.

فضلنا نحن السوريين أن نسكن مع بعضنا البعض، وكان لنا ذلك.

الجمعية التعاونية الفلاحية كانت جمعية انتاجية، ملكية وسائل الانتاج كلها من أرض وأليات وحيوانات وطرق، كلها تخضع لملكية جماعية ينتخب أعضاءها هيئة إدارية، تقوم بوضع برامج وخطط الانتاج، لزراعات موسمية على مدار السنة متوخية زيادة. الانتاج من سنة إلى سنة، عن طريق السعي للحصول على آليات حديثة ومتطورة من الدولة، التي بدورها تتعهد بشراء كامل محاصيل الجمعية.

كانت فترة اقامتي بهذه القرية التعاونية غنية بكسب المعارف والمعلومات عن عالم الزراعة والانتاج الزراعي، وعن علاقات المجتمع الريفي، وعن كيفية ادارة الجمعيات التعاونية الفلاحية، وعن طبيعة وعادات الانسان الألماني والريفي خصوصا.كانوا أناسا بسطاء وطيبين وكرماء. هناك تعلمت قيادة التراكتور بدون مدرسة سواقة وهناك تعرفت على اللهجات اللغوية غير الفصيحة.

وتعرفت على قيمة العمل المبزول في كل حلو بطاطا نأكلها، بدون أن نفكر بمراحل انتاجها ونقلها الى أن تصل الى صحن طعامنا.

وهناك في يوم الثامن والعشرين من شهر ايلول 1961 سمعنا من خلال الراديو بسقوط الوحدة بين سوريا ومصر، ولا أكتم القراء بأن فرحنا كان كبيرا، إلى درجة أنني ورفاقي زياد إدريس وعون جبور ورزوق طولاب رقصنا وغنينا بوهم استعادة سوريا لحريتها وعودتها الى تطورها الديموقراطي التقدمي السابق.

كان من أسباب موقفنا هذا أيضا هو ما تعرضنا له خلال أعوام الوحدة الأولى من ملاحقة وخوف من الاعتقال وترك الوطن واللجوء إلى لبنان، تحت ظل المعاناة المعيشية الصعبة والمريرة كالكابوس ومنه أيضا التأجيج والضخ الاعلامي الهستيري ضد سياسات نظام الوحدة وممارسته الدموية، من قبل رسائل الحزب المركزية وما كان يكتب في جريدة الحزب. "الأخبار" عن الاستعمار الفرعوني، وسياسة ابن الست وابن الجارية، ومحاولات مصر ابتلاع الثروات السورية، وتحطيم للصناعة وللتجارة ودور البنك المصري بالاستيلاء على الثروات النقدية والذهبية في البنك المركزي السوري.

كانت مقالات الكاتب في جريدة الاخبار أمين الأعور الاسبوعية، تغلي في الحماسة في مهاجمة نظام السراج والمشير عبد الحكيم عامر بذاتية مفرطة، تذكرني بخطابات أحمد سعيد على الجانب الآخر من صوت العرب من القاهرة.كانت حربا كلامية نارية تأجج العواطف والنفوس وتشعل النار في الاجواء.

في شهر أيار من العام 1961 اصدر الحزب بيانه ذات النقاط الثمانية عشر.

وتبدأ النقطة الأولى منه إلى إعادة النظر بالوحدة من الأساس. ثم مواد تدعو إلى انتخاب مجلس نيابي سوري وآخر مصري وحكومات في القطرين بظل ديموقراطية شفافة مع حكومة مركزية تشرف على الدفاع والشؤون الخارجية. وغلى إطلاق الحريات الديموقراطية وحرية في الصحافة وتشكيل النقابات والجمعيات الخ. بمثابة نظام فيدرالي عمليا.

كانت استقالات كل الوزراء السوريين المركزيين، بمن فيهم الوزراء البعثيين والمستقلين تبعث بإشارات واضحة، بأن الشعب السوري بأغلبيته أصبح بواد وقيادة عبد الناصر، بواد أخر بواقع زمني سريع لم يكن أحدا يتوقعه على الاطلاق، مما كان يولد لدينا نحن الشيوعيين السوريين، بأننا كنا على حق في مواقفنا من الوحدة الاندماجية الغير مدروسة.

في نهاية فترة تطوعنا في قطاف البطاطا أقامت الجمعية التعاونية الفلاحية حفلة شكر ووداع لنا حافلة ترعنا فيها كؤوس متنوعة من الأشربة الروحية وبكميات وافرة.

وفي اليوم التالي عدنا إلى لايبزيغ مهللين فرحين بالانفصال ولصحة سياسات حزبنا الشيوعي السوري.

اجتمعت قيادة المنظمة الحزبية في لايبزيغ وقررت إقامة احتفال خطابي بهذه المناسبة حضره أعداد كبيرة من الطلاب السوريين وأعداد كبيرة من الشيوعيين العرب.

وكنت قد كلفت بإلقاء كلمة الحزب في هذه الأمسية. وبالمناسبة لا بد من القول الآن بأنني كنت ولا أزال نادماً على ما فعلت، ولكن تحكم على الأفعال بظروفها، ولقد وعيت بعدها بأن عملية الانفصال عن مصر شكلت نكسة في تاريخ العرب ورجعة إلى الوراء، مع يقيني إلى الآن بأن قيادة الرئيس عبد الناصر في وقتها تتحمل المسؤولية الرئيسية عنها بسبب غياب الديمقراطية والقيادة غير الجماعية، وحكم الفرد أو الزعيم.

وعلى نطاق الحركة الشيوعية العام بقيادة نيكيتا خروتشوف، لا يسعني إلا التطرق الى الانقسام الحاد فيها جراء الخلاف مع قيادة الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماوتسي تونغ منذ عام 1960. ففي حين دعت القيادة السوفيتية الى سياسة التعايش السلمي مع النظام الرأسمالي وتخفيف التوتر معه والدعوة الى خطوات نزع السلاح النووي وإلى السباق الاقتصادي بين النظامين،وإلى إمكانية الوصول الى الاشتراكية بالطرق السلمية،وإلى دعم طريق التطور الغير رأسمالي في البلدان النامية.كان الحزب الشيوعي الصيني يعتبر ذلك خروجا عن تعاليم الماركسية اللينينية. وبدأ ماوتسي تونغ يتحدث عن النظام الرأسمالي بأنه نمر من ورق،وبأن ريح الشرق تغلب ريح الغرب.

وبالمقابل كانت القيادة السوفيتية تتهم قيادة الصين بأنها من أصول فلاحية غير قادرة على فهم الواقع الإنساني الجديد ومواكبة التطورات التي حدثت وتحدث. وطبعا اصطفت قيادة خالد بكداش إلى جانب الاتحاد السوفيتي وبحماسة واضحة.

هذا الانقسام عكّر الأجواء، وأضر بالحركة الشيوعية إلى حد بعيد.

في خريف العام 1962، بدأت الازمة الكوبية بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الاميركية، بعد أن كشفت صور التقطتها الطائرات الاميركية من سماء كوبا، وجود صواريخ روسية بأعداد كبيرة. بعد أن وثق الرئيس كنيدي من صحة الصور، توجه بخطاب شديد اللهجة إلى نيكيتا خروتشوف، طالبا بسحب هذه الصواريخ من أرض كوبا فورا، مهددا بالحرب. عاشت البشرية جمعاء على أعصابها متوجسة اندلاع حرب عالمية ثالثة ولكنها نووية لا تبقي ولاتذر. مهددة الحضارة والانسان بوجوده.

مرت أيام عديدة حبلى بالشائعات والتوقعات المنطقية وغير منطقية.

شكل إنذار كيندي احراجا صعبا لنيكيتا خروتشوف، يتعلق بهيبته في داخل بلده، وعلى الصعيد الدولي، إنْ تراجع. وبدأت جولة من المباحثات السرية بين الطرفين العملاقين، والعالم بأسره ينتظر.

وبحكمة القائدين، توصلا الى اتفاق يضمن أمن أميركا من جهة، ويحمي ماء وجه وكرامة الزعيم السوفيتي. وينص على سحب الصواريخ الروسية من كوبا، مقابل أن تتعهد الولايات المتحدة الاميركية بعدم المساس بالنظام الشيوعي الكوبي. تنفست الإنسانية بأسرها الصعداء متجاوزة أكبر أزمة في القرن العشرين.

ألقى الزعيم السوفياتي خطابا مطولا شرح فيه حرصه على السلام الدولي، وتجنيب البشرية حربا نووية، وكيف أنه ضمن سلامة النظام الاشتراكي في كوبا.

في نهاية الأزمة قدم من برلين الرفيق أحمد فايز الفواز الى لايبزيغ وعقد اجتماعا لكافة افراد المنظمة، قرأ خلاله الخطاب المطول لخروتشوف، ثم علق عليه، شارحا الحكمة الكبيرة وروح المسؤولية العالية للقيادة السوفياتية. ثم أجرى مناقشة حول الموضوع مستقبلا أسئلة الرفاق.

كان الرفيق فايز يتمتع بذكاء واضح وبشخصية كاريزماتية لا تغيب عنها العين، وبسطوة حزبية مهيبة. وكان من المعجبين بالرفيق خالد بكداش ويمتدحه كثيراً، وأحيانا يقلده بأمور عديدة من اللباس إلى طريقة المعاملة.

وكان يتمتع بشدة الملاحظة وسرعة الاستنباط وطلاقة اللسان بلهجة رقّاوية، نسبة الى مدينة الرقة، محببة.

وفي المقابل كان خالد بكداش، وخصوصاً زوجته وصال فرحة، كما نقل لي، يكنان للرفيق فايز الفواز محبة خاصة وتقدير مميز، ويصفانه بأنه رجل بكل معنى الكلمة، ويتباهون به أمام المنظمات الحزبية الأخرى في أوروبا الشرقية، وكيف أنه يحل كل المشاكل، ويلبي كل المتطلبات التي يحتاجون لها.

وكما روى لي الرفيق عبد الله حنا، فإن الدكتور فايز كان يشتري لخالد وزوجته، ما يحتاجونه من متطلبات شخصية وهدايا، وأحيانا من أسواق برلين الغربية، وذلك من أموال الاشتراكات الحزبية للمنظمة الطلابية. ولا عجب في ذلك، اذ كان خالد بكداش يعتبر نفسه هو الحزب، والحزب هو خالد بكداش. ولقد ورد ذلك حرفياً في احدى رسائل الحزب المركزية، وقرأته أنا بعيني.

والنص يقول لقد أصبح اسم الرفيق الأمين العام خالد بكداش، يعني الحزب الشيوعي، والحزب الشيوعي يعني الرفيق خالد بكداش.

وأنا لا أعرف كيف ومتى انقلب السحر على الساحر، وصار الدكتور فايز من أشدّ منتقدي خالد بكداش، وأكثرهم جرأة في اظهار عيوبه ومسالبه علنا وأمامه أيضاً، في المؤتمر الثالث للحزب في العام 1969 وفي كلمته أثناء انعقاد المؤتمر الوطني للحزب عام 1971، والتي نشرت، الى جانب مداخلات انتقادية أخرى،لكوادر الحزب،في كتاب تحت عنوان قضايا الخلاف في الحزب الشيوعي السوري،والتي انتشرت وبسرعة في كل أنحاء سوريا، ولاقت استحسانا واسعا من قبل الشيوعيين ومن أوساط اليسار عامة.

وبعد بيان الثالث من نيسان من العام 1972، حيث صدر بيانا موقعا من قبل خالد بكداش ويوسف فيصل، وهما اثنان من أعضاء المكتب السياسي، من أصل سبعة اعضاء وسبعة أعضاء من اللجنة المركزية من أصل خمسة عشر عضوا، والقاضي بطرد عضو المكتب السياسي رياض الترك، ورفاقه ظهير عبد الصمد، وابراهيم بكري، وعمر قشاش، ودانيال نعمة، من عضوية الحزب، بحجة التحريفية والشوفينية والخروج عن خط الحزب، وحصول الانقسام عمليا، بدأ نجم الرفيق فايز الفواز بالصعود الشاهق في سماء الحزب الشيوعي (المكتب السياسي)، ويقال بأنه ورياض الترك أصبحا المحور الأهم في الحزب وقيادته الفعلية.

في بداية شهر تشرين أول 1961 عدنا إلى الدراسة مجددا في الصف الثاني طب.

-الفصل الثامن-

كانت المحاضرات كثيفة ومتعبة كان على ان اسمع وان اكتب ما فهمت وكان ذلك ليس كثيرا بسبب سرعة كلام الأستاذ المحاضر لذلك قررت ان لا أداوم على حضور تلك المحاضرات ما عدا محاضرات التشريح التي كان يلقيها أستاذ بارع صاحب معلومات عامة هامة جداً، ممتع، يجعلك مشدودا إلى سماعه ومتفهما لما يقول ويشرح. اسمه البروفيسور ليونارد وهو إنسان لا ينسى.

كنت أذهب الى محاضرات الفروع المختلفة مرة واحدة للتعرف على وجوه الأساتذة فقط لاغير.ووضعت لنفسي برنامجا، بعد.ان اشتريت كتب كل الفروع المختلفة بان ادرس من الساعة الخامسة بعد الظهر الى الساعة العاشرة ليلا يوميا وبعدها اذهب الى سهرات الملاهي والمطاعم أو الى سهرات الأصدقاء والرفاق والنقاشات السياسية التي لا تنتهي.كنت طبعا أستيقظ عند الظهيرة، أغتسل وأذهب لشراء المواد الغذائية التي أحتاجها او نحتاجها، حيث كنا نطبخ سوية ونأكل سوية، وطبعا عون كان متفوقا علي بمراحل، وعليه تقع جل اعمال الطبخ.

كنت طبعا أتابع اخبار الوطن والتطورات السياسية بدقة، رغم انكبابي على الدراسة ووصولي الى القناعة بأن اختياري لدراسة الطب كان صحيحا، اذ بدأت تنشأ علاقة حب وهوى بيني وبين مواد هذا العلم الشيق.إن معرفة تركيبة الجسم البشري، وآليات وظائفه، وطريقة عملها واكتشاف عمل الخلايا وتخصصها في تركيب كل جهاز من أجهزة الجسم ،وكشف أسرار عملها، وخضوعها لأوامر الدماغ والغدد الصماء، بعلاقة معقدة بين الكيمياء والفيزياء،كل ذلك يشكل أجوبة على تساؤلات الإنسان العادي، الذي لم يتاح له دراسة الطب.

كان الحزب في بداية مرحلة الانفصال يطالب بإطلاق سراح معتقليه في سجن المزة، ويحاول أيضا أن يسمح لأمينه العام بالقدوم الى دمشق، رغم موقفه بمباركة عملية الانفصال وتأييدها الكامل. وكان الأمين العام خالد بكداش يطالب قيادة الحزب في الداخل أن

تنظم عملية استقباله في المطار بحشد يضم الآلاف من الرفاق والاصدقاء،وهذا لم يكن ممكنا،وغير واقعي، بعد خروج الحزب مثقل الجراح،في معركته مع نظام الوحدة.

أصدر الحزب مشروعه السياسي في عهد الانفصال، مؤلفا من صفحتين لا أكثر، قدم فيه تنازلات خطيرة أمام البورجوازية السورية، فيما يتعلق بإعادة النظر بقرارات التأميم الصادرة بعهد الوحدة، وأعلن تمسكه بالإصلاح الزراعي. وأخذت من المشروع موقفا معارضا في داخلي.

كان الحزب الشيوعي السوفياتي بقيادة نيكيتا خروتشوف، يقدم أطروحات جديدة وجريئة فيما يتعلق بالتعايش السلمي ،ونزع السلاح ،وإمكانية الوصول إلى الإشتراكية بطرق متعددة،ومنها السلمية عن طريق الانتخابات البرلمانية،ومنها الدخول الى طريق التطور اللارأسمالي.

كان الرفيق خالد بكداش غير منسجماً مع هذه المواقف،وكان يكره خروتشوف في أعماق نفسه،وكثيرا ما كانت زوجته ام عمار،على ماسمعت،تدعو عليه بالحمى والموت.

كنت أقرأ بشغف خطابات خروتشوف،وأعتبره قائداً فذاً ،يمكن أن ينقل الاتحاد السوفيتي إلى مجتمع حديث، وبالخروج من المرحلة الستالينية الممقوتة،داخلياً وعلى النطاق العالمي والاوربي خاصة.

في العام 1963 وصل الى مدينة لايبزغ شاب في وسط الثلاثينات أو بداياتها،لدراسة اللغة الألمانية،يدعى نايف بلوز.

ومن ثم للحصول على دكتوراه في الفلسفة. مبعوثا من الحزب طبعا.

كان هذا الرجل مثقفا موسوعيا من الطراز الأول، بالنسبة إلى عامة أعضاء الحزب،وقيادته خصوصاً. يتبع أسلوباً خاصا بالنقاش،يستدرجك لطرح افكارك أو بضاعتك،

ثم ينقض، وأحيانا بشكل مضحك، أو ساخر، عليها لتفتيتها الى عناصر أولية، مثبتا عدم نجاعتها أو غلطها من الأساس. كان صاحب فكر نقدي بإمتياز.

نشأت بيننا علاقة صداقة متينة جدا، نظرا لاتفاق الكيمياء، وتشابه الامزجة عموماً. فموقفي النقدي من الأمين العام، ومن برنامج الحزب في فترة الانفصال، ومن طريق التطور إلى الاشتراكية عبر التطور اللارأسمالي. فسأبدأ من الإشارة في هذا المجال إلى أن المرحوم نايف كان يحمل دبلوم في الفلسفة من جامعة دمشق، وكان بيتهم في دمشق يستضيف دوماً، أعضاء من القيادة المركزية للحزب وخصوصا نقولا الشاوي وفرج الله الحلو ويوسف فيصل ودانيال نعمة وغيرهم كثير، وهو يعرفهم بالتالي عن قرب،على عكسي أنا،حيث قدمت من منظمة طلابية في مدينة حمص.

وأخيرا وليس آخراً، كان يكبرني بتسعة سنوات من العمر.

بدأنا. نتفق بأن هكذا حزب يقاد بعقلية عبادة الفرد، وبقيادة جاهلة في العلم الماركسي ومنصاعة بدون نقاش لأوامر الأمين العام ،ليس له مستقبل على النطاق العام.

بعد فترة قصيرة خرجنا بشكل خجول الى العلن ضمن رفاق المنظمة في لايبزيغ.وركزنا بالدرجة الأولى على موضوع عبادة الفرد وتفرد الرفيق خالد بالزعامة المطلقة. وتفرد الرفيق نايف بضرب أول معول في هذا الصنم المعبود،وبدأت انا بالتحدث مع بعض الرفاق الواعيين حول هذه الأمور.

في صيف العام الدراسي 1964، سافرنا أنا وصديقي عون جبور بالقطار إلى مدينة اسطنبول، بقصد لقاء أهلنا هناك. والموضوع بدأ بأن والدتي اشتاقت الي كثيرا بعد مرور خمسة سنين على آخر لقاء. وسألت اذا كان من الممكن زيارتي في لايبزيغ، طبعا الأوضاع المتواضعة فيها، كانت لا تسمح، فاقترحت عليها ان يكون في اسطنبول، وكان زميلي عون أيضا موافقا وتكلم مع والديه،اللذين قررا القدوم،وجرى التفاهم مع والدتي حول زمان الموعد وحول عنوان الفندق.

قدمت والدتي إلى اسطنبول بالطائرة، قدم والدي عون بالباص، وكنا نحن الاثنين في استقبالهم. كانت حرارة اللقاء عالية وفرحته أعلى، وسعدنا أية سعادة. قضينا في هذه المدينة، رائعة الجمال، فترة ثلاثة أسابيع تعرفنا فيها إلى معالم اسطنبول الأساسية.

قبل موعد العودة بأيام قليلة، قدم إلى الفندق شاب حلبي، من ألمانيا حيث اشترى هناك سيارة اوبل مستعملة يريد العودة بها الى حلب.

عرض على والدي عون أن يرافقوه بهذه السفرة من اسطنبول إلى حلب،وكعادة تجار حلب،طلب تقاسم تكاليف البنزين بينهم،فوافق على الفور،بدلا عن العودة بالباص.

كانت والدتي،المشهود لها في أوساط مجتمعها الحمصي، بالجمال والوسامة، بالذكاء واللباقة، باللطف والتهذيب، بحرارة العاطفة والتعاطف، تملك في حقيبتها بطاقة العودة بالطائرة، ومع ذلك صارحتني برغبتها بمشاركة الجميع بالعودة معهم بسيارة هذا الحلبي، الذي لم أعد أذكر اسمه، حرصا منها على مشاعر أهل صديقي عون من أن تجرح،هي بالطائرة، وهم متواضعي الحال بالسيارة.

ولجهلي بالجغرافيا، بعدم معرفتي بطول الطريق الذي يتجاوز 1200 كم، وافقت فورا وامتدحت مشاعرها الرقيقة.

سألتها ماذا تفعلين ببطاقة الطائره قالت نمزقها.

وفي اليوم الموعود المشؤوم ودعنا بعضنا البعض مع ذرف الدموع وتقبيل الخدود والأيادي وطلب الرضى، وتوجهوا هم يقصدون حلب، وقررنا أنا وعون أن نبقى عدة أيام في اسطنبول، رغبة منا التعرف والتمتع بأجواء ليل المدينة الحمراء.

وفي اليوم التالي رن جرس الهاتف في الفندق، واذا بموظف في السفارة السورية على الخط يطلب منا السفر فورا الى أنقرة ومقابلة القنصل هناك. لقد شعرت فورا بالمصاب وبالكارثة مع عدم تصور حدودها طبعا. قام القنصل باعلامنا بما حدث.ليلا وقبل وصول السيارة الى

أنقرة بعدة كيلو مترات، اصطدمت السيارة التي فيها أهليكم بسيارة شاحنة متوقفة على جانب الطريق، وبدون إضاءة.

انفتح باب السائق على اليسار، وخرج من السيارة بدون اصابات تذكر. ووالدتي خلفه بقيت على الحياة مع فقدان الوعي نتيجة الصدمة، أما والدي رفيقي عون فقد توفوا على الفور على يمين السيارة.

سألنا القنصل عن مدى استعدادنا لمقابلة السائق، وعن مدى استعدادنا بالتنازل عن حقنا الجنائي تجاهه.

وافقنا عون وأنا بالتنازل عن اي تعويض، لأن ذلك لا يعيد أهالينا الى الحياة، وقبلنا أيضا بمقابلة السائق.

نظرا لشعورنا بأنه غير مذنب، ولتمتعنا بعقلانية اكتسبناها من مجتمع ألمانيا الديموقراطية المتقدم.

قام صاحب وسائق السيارة، بتقديم العزاء وأبدى الأسف الشديد لما حصل، مع حرصه على تقديم الشكر والاعتراف بالجميل لتنازلنا عن حقوقنا الشخصية أمام المدعي العام التركي، ثم شرح لنا ما جرى ملقيا اللوم على سائق الشاحنة الذي أوقفها على جانب الطريق دون أية إضاءة أو علامة تنبيه.وقال مبديا غضبه وانزعاجه الشديد من تصرف سائق ومرافق سيارة الإسعاف الذين وصلوا الى مكان الحادث وامتناعهم عن نقل الضحايا عندما علموا بأنهم مسيحيون، بحجة نجاستهم.

شيء صادم ولا يوصف بكلمات عن تخلف عقلية، وقناعات طائفية متزمتة من أناس يعملون في حقل إنساني إغاثي. المهم جرى نقل الضحايا المصابون بباص عابر، بوضعهم على أرضه. وأعلمنا بأن والدتي لا تزال على قيد الحياة،وتعالج في المستشفى الوطني لمدينة انقرة.

هرعنا على الفور إلى هناك، فوجدتها بحالة غيبوبة، ولكنها فتحت عيناها وتبسمت حين سماعها لصوتي.

سالت الطبيب المعالج عن خطة العلاج، فأجاب بأنه ينصح ،بأن يقوم جراح عصبية بمتابعة علاجها.

بحثنا عن طبيب اختصاصه جراحة الجملة العصبية، فأعطونا عنوان منزل بروفيسور يقيم ليس بعيدا عن حيث كنا، ذهبنا إلى هناك، وكانت الساعة تشير الى الساعة العاشرة ليلا، وطرقنا الباب فخرج منه الجراح بنفسه، فشرحت له بالانكليزية الوضع الذي نحن فيه، فقال أنه لا يعالج مرضاه في المشافي الحكومية او البلدية، وإنما فقط في المشافي الخاصة، وأعطاني عنوان مشفى خاص، علي أن انقل والدتي المصابة إليه.

في صباح اليوم الثاني كان علي تأمين سيارة إسعاف، تقوم بهذه المهمة.اكتشفنا بأن مدينة انقرة، العاصمة التركية، كلها ليس لديها إلا سيارتي إسعاف فقط. وكانت معركة أخرى بان نحصل على إحدى السيارتين.

ولكي لا أطيل، وربما قد أطلت، قامت سيارة إسعاف بنقل الوالدة الى المستشفى الخاص، وهناك كانت الطامة الكبرى. فلقد امتنعت إدارة المشفى عن استقبالها، إلا بتقديم مبلغ خيالي من المال.

كانت ذخيرتنا من المال قد مالت الى النضوب، أو قد نضبت، بعد كل هذه المدة من اقامتنا في تركيا. ما العمل؟

ذهبنا الى بيوت طلاب يسكنها عرب شارحين أزمتنا ووضعنا المأساوي، فما كان للشهامة العربية إلا أن تفصح عن نفسها، فقاموا على وجه السرعة بجمع المبلغ المطلوب من بعضهم البعض. وسارعنا به، بعد الشكر والامتنان، الى المشفى، طالبين اعلام البروفيسور بوجودها عندهم.فقالوا أنه يقوم حالياً بإجراء عملياته الجراحية، ولن بتمكن من معاينتها إلا

بعد الظهر. ذهبنا الى فندقنا بقصد الراحة قليلا، ولم يمضي وقتا طويلا، إلا أن اتصل المشفى وأعلمني بوفاة شهيدة المحبة، وشهيدة المشاعر الإنسانية الراقية.

كان حزن رفيقي عون، وهو الانسان العاطفي الرقيق، يفوق حزني ودموعه تنسال بغزارة تفوق بسيلانها عن ما ذرفته على وفاة والديه. والحق يقال.

كانت صدمتي مروعة وعظيمة، وهي الأكبر في حياتي، ولا تزال ترافقني إلى اليوم. كان الألم والأسى والحزن، يسألني أكان لا بد لك ألا أن تسلك هذا الطريق، طريق الاحزان. خسرت فيه الوطن والاهل ووالدتك والاصحاب، طريق النضال الشيوعي الصعب. فأجيب إن محبتي لشعبي ولوطني دفعتني الى هذا الطريق دفعاً، وكان شعارنا العظيم المرفوع (من أجل وطن حر وشعب سعيد) هو منارة سفينتي الشبابية وهي تبحث عن مرسى.

المهم أننا وقفنا من جديد أمام مهمة أصعب من سابقاتها، كيف نتصرف، وبمن نستعين؟

ذهبت الى مركز البريد بأرجل من رصاص، وأبرقت لشقيقي فيليب أبو نزار أعلمه بالمصيبة وأطلب العون ،وكذلك قام رفيقي عون باخبار خاله،ولم يمضي إلا يوما واحداً وكانوا في انقرة الى جانبنا.

كنا قد سألنا عن اجراءات نقل الجثامين الى سوريا. وكانت في غاية التعقيد.ونحن عون وأنا في حالة حزن وضياع لاتوصف، ولا ندري من أين نبدأ. فقام الكبار منا الأخ والخال بتولي الأمر. وعادوا بالجثامين إلى حمص ونحن بقينا في تركيا لا نستطيع مرافقتهم وحضور مراسيم الدفن، تخوفا من الاعتقال، رغم أن حزب البعث العربي الاشتراكي كان قد استلم السلطة، وحافظ مع ذلك على أوامر الاعتقال التي صدرت بحقنا الشيوعيين، في عهد الوحدة الاندماجية مع مصر.

عدنا إلى لايبزيغ نجرجر وراءنا مشاعر الخزي والحزن والكآبة. وكان ذلك في شهر تشرين أول 1964. لم تمضي إلا أيام وسمعت بالخبر الحزين الجديد وهو اقالة الزعيم

السوفياتي الكبير نيكيتا خروتشوف من منصبه كأمين عام للحزب الشيوعي السوفياتي. كان هذا الزعيم السوفياتي موضع أملنا،الدكتور نايف بلوز وأنا، بتحقيق الإصلاحات المطلوبة، والانتصار نهائياً على الستالينية في دوائر الدولة العميقة بالاتحاد السوفياتي، وأعتقد بأن بقاءه على رأس السلطة كان سيوفر علينا فجيعة إنهيار الاتحاد السوفيتي ومعه المعسكر **الاشتراكي** في العام 1991.

-الفصل التاسع-

ظلت حادثة فقداني لوالدتي المؤلمة ترافقني في نومي على شكل أحلام او كوابيس، وفي يقظتي على شكل بكاء دموعه لاتنضب، وذلك على مدى شهور، بل سنوات. ذلك لأن أمي كانت تعني لي الوطن بحد ذاته.فالانسان، كما يقول شكسبير لا يحن الى الشجر او الحجر بل يحن ويشتاق إلى البشر.

رغم ذلك انكببت على الدراسة التي أصبحت قريبة الى نفسي وقناعتي وجاءت علاماتي بالتالي جيدة مما دعى إدارة الجامعة لتقديم منحة مالية اضافية لي تلقيتها بفرح واعتزاز. كنت أول طالب أجنبي في جامعة لابزيغ يحصل على مثل هذا التقدير.

في هذه السنة الدراسية أنهينا المرحلة اللاسريرية وبدأنا بالمرحلة السريرية.

وقبل سرد أحداث سرد هذه المرحلة، سأحدثكم عما جرى معي في فحص مادة علم الوظائف، **phisiogie**، وهي مادة أساسية في العلوم الطبية، بالإضافة طبعا لمادة الأمراض **pathologie**.

كان هناك كتاب واسع مقرر ومعتمد لهذه المادة. عكفت على دراسته شهرا كاملا وبمعدل 12 ساعة باليوم، حفظته صفحةً صفحة بل سطرا سطرا.

وفي يوم الامتحان الشفهي،دخلت مع ثلاثة طالبات ألمانيات، إلى غرفة بل مكتب عميد الكلية،لتقديم الامتحان.كان الأستاذ العميد يطرح سؤالا محددا علينا بالتتالي،ثم سؤالاً ثانيا وثالثا ورابعا اخيرا.وعند الانتهاء من الأسئلة، بدأ بإعطاء العلامات. أعطاني علامة جيد ثم توجه الى الزميلات معلنا بأنهن جميعا راسبات، بدأ بتعنيفهن ...ألا تستحين من أنفسكن، هذا الطالب الأجنبي غريب اللغة واللسان البعيد عن أهله، عليه تدبير أموره من طعام وغسيل ألبسة الى كافة شؤون الحياة وإذا تأخرت رسالة أهله بالوصول يبقى مشغول البال مضطرب الفكر والهواجس.

وبعد أن انتهى من محاضرته قلت له بأنني أعترض على إعطائي درجة جيد، فأنا أرغب بدرجة جيد جدا وهذا ما استعددت له، مضيفا بأنني أعرف الكتاب أكثر مما تعرفه ربما

تعرف أكثر من كتاب، ولكن الكتاب المقرر لي أعرفه أكثر منك. تفاجأ الاستاذ على مضض وقال تقدم نحو السبورة واشرح لي كيف ينتقل احساسك بالألم إلى الدماغ وكيف يعود جواب الدماغ الى الاطراف.شرحت ذلك بالصورة والكلمة بكل إتقان. فقال أعطيك علامة جيد **Blus**. فرضيت ليس عن قناعة ولكن من الخوف.

طبعاً انكبابي على الدراسة بهذا الشكل المكثف لم يكن ممكنا،لو بقيت من سكان بيت الطلبة برفقة زميلي عون حيث كانت غرفتنا تضح بالزوار ليلا ونهارا من الرفاق والاصدقاء السوريين والعرب. ولهذا بقيت منذ السنة الدراسية الثانية أعمد الى استئجار غرفة مفروشة عند إحدى العائلات الالمانية. كانت أسعار الإيجارات رخيصة بشكل لا يصدق. وعند انتهاء الامتحانات كنت اعود للسكن ببيت الطلبة، وكانت أجرته 10 مارك شرقي بالشهر دون أن أتخلى عن غرفتي الخاصة في الخارج.

كنت أنشط في العمل الحزبي وفي عمل رابطة الطلاب السوريين، ننظم سهرات ثقافية، تضم الموسيقى والحزازير ومسابقات أفضل نكتة وأجمل قصيدة. وكنت أعمل أيضا ضمن الهيئة الادارية لاتحاد الطلاب العرب.

وفي 17 نيسان من كل عام في مناسبة حلول عيد الجلاء،كنا نقيم حفلا كبيرا في قاعة واسعة تضم المئات، ندعو إليها أساتذتنا الألمان من كل فروع الجامعة وزملائنا الالمان أيضا، وندعوا كذلك الهيئات الادارية للمنظمات الطلابية العربية. نستهل الحفل بالنشيد السوري يغنيه طاقم من أعضاء رابطتنا، تحت إشراف الموسيقار نوري رحيباني، ثم كلمة المناسبة كنا نكتبها في قيادة المنظمة الحزبية ونقوم بترجمتها ويلقيها أحد الزملاء المتمكن في اللغة الألمانية.وتتخلل الحفل إلقاء كلمات من الضيوف، وبعض الأغاني العربية، ثم يتاح المجال للموسيقى الغربية مع الرقص الغربي أيضا.

جرت العادة أن اتقابل ثلاث مرات بالأسبوع مع الرفيق نايف بلوز في جلسات ودية بدون برنامج محدد أو مخطط مدروس غالبا في أحد مطاعم أو ملاهي لايبزيغ، نتحدث حول كل أحداث السياسة العالمية والعربية والسورية طبعا، وكذلك عن أوضاع الحزب الغير سارة

تنظيميا وسياسيا وفكريا، بظل قيادة تخضع لعبادة الفرد وتسلطه الكامل على كل أوجه نشاطاته وساحات عمله.

أتذكر حادثة مرت معي برفقة نايف حيث كنت مضيفه على العشاء، قال فيها في نهاية السهرة، أرى إنك تعتز بكرمك؟ قلت نعم، قال: إن الكرم عادة من عادات المجتمع الإقطاعي، وقيمة عالية من قيم الإقطاعي، أما العمال والفلاحين، وانت تعتبر نفسك من المنضمين لصفوفهم، فالكرم ليس من موضاعتهم، لأنهم لا يملكون ما يكرموا به.

تأثرت جدا بهذا الكلام وبدأت اعيد النظر بفكر نقدي بكل مسلماتي وقناعاتي الأخلاقية والاجتماعية.

وفي لقاء مع زملائنا الطلبة السوريين توجه أحدهم بالسؤال لنايف، أنت درست الفلسفة فما موقفك من الله، فأجاب نايف على شكل سؤال عدد لي أسماء الالهة السوريين آلتي تعرفهم فأجاب الطالب حدد وأيل وبعل وعشتار. قال نايف ما يعني هذا؟ أجاب الطالب لا أعرف فقال نايف هذا يعني أن البشر هم من يصنعون آلهتهم، وأحيانا على صورتهم ومثالهم.

في ألمانيا الديموقراطية كان طبيبان شيوعيان فروا من ملاحقة مباحث عبد الحميد السراج ،من مدينة حمص،وأرسلهم الحزب بقصد التخصص في أحد فروع الطب، الأول هو الطبيب زياد الساعاتي،خريج جامعة دمشق،وعمل في مشفى في مدينة براندنبورغ بالقرب من برلين، في قسم الجراحة، والآخر هو الدكتور شكر الله عبد المسيح خريج فرنسا، وعمل في مشفى قريب أيضا من برلين في قسم أمراض الأنف والأذن والحنجرة. لم أكن أعرفهم من قبل شخصيا بسبب فارق العمر الكبير، ولكني تعرفت عليهم بشكل لصيق، في ألمانيا ونشأت بيننا علاقة صداقة متينة امتدت إلى آخر أعمارهم، لأرواحهم الذكية الطاهرة الهدوء والسكينة. حيث بقوا لأخر أيامهم متمسكين بماركسيتهم وشيوعيتهم.

وفي مدينة لايبزغ كان هناك طبيباً سوريا من مدينة دير الزور يتخصص في التوليد والجراحة النسائية ويدعى الدكتور محمود الحافظ رحمه الله أيضآ.كان الدكتور محمود يتبنى الفكر الماركسي أيضا، وله أخ محام من كوادر الحزب يعمل بالرقة.

د. محمود شخص إجتماعي، كريم اليد، معارض لدولة الوحدة، محدثا، يرغب بالاستماع اليه دوما يعرف المجتمع السوري جيدا كان يدعونا الى منزله بين الحياة والحين، في إحدى المرات وبعد طعام الشواء والتبولة جلسنا على تراس منزله وكان الوقت صيفا طبعا واستلم الحديث وعرج على اسم الدكتور فايز الفواز مسؤول منظمتنا الحزبية مهاجما، ينعته بالغرور والتعالي الخ.فقمت بالتصدي له مدافعا عن رفيقنا فايز، في حين صمت الآخرون من رفاقنا وعددهم حوالي 12 شخصاً. ودعته ببرودة واضحة وذهبت إلى بيتي.

في اليوم التالي مباشرة بعد الظهر،ُدق باب غرفتي في بيت الطلبة، فتحت فإذا محمود الحافظ أمامي فرحبت به ودعوته للجلوس قال لن اطيل عليك، جئت طالبا صداقتك ومودتك. البارحة لفت نظري صمت جميع رفاقكم، عندما كنت أتحدث عن رفيقكم فايز الفواز، وكنت الوحيد من تصدى لي ودافعت عنه. فلهذا اطلب صداقتك، لانك سوف تدافع عني إذا هاجمني أحدهم في غيابي، انا متأكد من ذلك.

حادثة رغبت بسردها لأنها بنظري غير عادية علما إنني لم اذكرها يوما للرفيق فايز إلى الآن

كان لنا رفاق في لايبزيغ يسكنون في بيت للطلبة بعيد عن بيتنا الذي كان يسكن فيه العدد الأكبر من الرفاق ومنهم قادة المنظمة عبدالله حنا وسلطان أبازيد وزياد إدريس وأنا وكلهم لم يكونوا من عداد فريق بيروت،ومنهم من قدم من ألمانيا الغربية. كنا لا نعرفهم ولا نثق بهم كل الثقة، بحسب قلة المعرفة، وكنا لا نرشحهم للعمل في قيادة الرابطة الطلابية ولا الى المهام والنشاطات الاخرى. ومن الطبيعي أن يكونوا ناقمين ومعارضين، وكنا بقيادة الرفيق عبد الله نقمعهم وبشدة أحيانا، أذكر بعض الأسماء منهم أبو النور كيالي، وفوزي الدقاق، وعبد القادر الصباغ من حلب، وهشام شومان من اللاذقية وغيرهم.

في مطلع العام 1965 جاء من برلين الرفيق فايز الفواز وطلب عقد اجتماع يضمني وسلطان أبازيد وزياد إدريس من قيادة منظمة لايبزيغ، أعلمنا فيه بأن الرفيق عبد الله لم يعد يرغب بقيادة المنظمة وعلينا نحن الثلاثة انتخاب واحد منا ليكون بديلا عنه أي سكرتير للمنظمة. فورا وبنفس الوقت أشرنا، أنا وزياد، بأصابعنا نحو الرفيق سلطان الذي كان الأضعف بالحلقة، اي كان هو الحمامة ونحن الصقور.

كان سلطان إنساناً رقيقاً، حالماً، وديعاً، يعتمد على أحاسيسه وشعوره، أكثر من اعتماده على عقله، مسالما، ضعيف المعرفة بقواعد التنظيم اللينيني، لأنه جاء من درعا ومن منظمة ضعيفة، حديثة التكوين.

لم يكن مبدأ الانتخاب معروفاً في حزبنا الشيوعي السوري، كل قيادات المنظمات وأمناء الفرق الحزبية يجري تعيينها من الأعلى إلى الأدنى على شكل ترشيح يجري الموافقة عليه بانصياع من الكل. والمطلوب من كل أعضاء الحزب أن يكون لهم موقفا ورأياً واحدا تجاه كل الأحداث العالمية، والظواهر والحركات السياسية.

كنت شخصيا وداخليا أتعاطف مع خروتشوف وتيتو وعبد الناصر والحراك الثوري في اليمن ومع بوادر ظهور الشيوعية الاوروبية، وطريق التطور غير رأسمالي نحو الإشتراكية، وأعلن عن مواقفي أحيانا التي لم تكن تتطابق مع الخط البكداشي.

في أواسط العام 1966 قدم من دمشق إلى برلين الرفيق يوسف فيصل، وطلب عقد اجتماع مع كوادر الحزب في فندق **Sport Hotel**.

وسافرنا من لايبزيغ إلى هناك. لم أكن أعرفه من قبل. قام بعرض سياسي مطول عن الأوضاع في سوريا وعن علاقة الحزب بالنظام البعثي بعد الثالث والعشرين من شباط 1966 وتعيين وزير شيوعي يدعي سميح عطية، ثم تطرق الى الحديث عن الوضع العالمي. كان أثناء الاجتماع ينظر إلى كل رفيق بعين التفحص والريبة والشك كأنه ضابط

مخابرات لا ترى في عينيه أي مشاعر وأحاسيس إنسانية ولا ينم في حديثه تعبير عن عاطفة ومحبة.

في نهاية حديثه قال هناك رفيق جزائري يعيش في برلين، عمل في مطلع الثلاثينات في قيادة حزبنا مندوبا من الكومنترن، القيادة العالمي للأممية الشيوعية، رجل مسن يرغب بالحديث إليكم، فاسمعوا له ولا تناقشوه.

دخل علينا رجل في أواسط السبعينات من العمر فاتح البشرة أزرق العينين فوق شفتيه شوارب بيضاء طويلة، عيونه تشع ذكاء، وانتباها، ومودة.

الرفيق عرف عن نفسه باسم محمود الأطرش،مولود في فلسطين وعاش مع والديه في الجزائر، عمل في صفوف الحزب الشيوعي الجزائري والفرنسي ثم جرى انتدابه للعمل في الكومنترن، مبعوثاً الى مساعدة الأحزاب الشيوعية الناشئة في فلسطين وسوريا. عمل في الحزب بشكل مباشر بين 1933 وحتى 1935 أثناء وجود خالد بكداش في موسكو في المدرسة الحزبية. حدثنا عن نشاط الحزب في هذه الفترة وكيف أنه ساهم في عملية تعريبه، وعن سياسي الفترة من السوريين بالأسماء وعرج الى الحديث عن الكيان الصهيوني قائلا لولا خيانات القادة العرب لما كان هناك شيء اسمه اسرائيل. وأن الجيش الجزائري قادر على اجتياحها بأيام لو سمحت الفرصة.

ترك يوسف فيصل في نفسي أثراً سلبياً بالغاً وقلت إذا كان هذا الرجل الشخص الثاني في قيادة الحزب، فإني غير مستعد للعمل تحت قيادته. وفورا بادرت إلى كتابة رسالة أطلب فيها قبول استقالتي من قيادة منظمة لايبزيغ، مع احتفاظي بعضوية الحزب، قائلا إنني لا

أستطيع اقناع الرفاق بالفرق الحزبية بصحة برنامج وسياسات الحزب وأنا غير مقتنع بها.

-الفصل العاشر-

أخذت هذه الحادثة صدى كبير في أوساط كل الشيوعيين العرب ومنهم طبعا السوريين.

ولم يمضي سوى أيام حتى جرى الاجتماع معي، من قبل ممثلي قيادة المنظمة للتعبير عن اطراءهم وتقديرهم لموقفي الصلب هذا. وانتهى موضوع العزلة وانفكت نهائيا.

اليوم وأنا أكتب تمر الذكرى السادسة والسبعين لانتصار الجيش الأحمر على النازية الهتلرية عدوة الشعوب. إنه يوم عظيم في التاريخ الحديث.

وكان ضباط الجيش الاحمر في لا يبزغ يحتفلون بهذا اليوم احتفالا كبيرا، ويوجهون الدعوة لنا لمشاركتهم أيضا.

كنت أعرف من خلال تجارب سابقة طبيعة الضابط الروسي وقدرته الفائقة على تحمل شراب الفودكا الروسية وكيف يتطلب منك،أن تشرب معه نفس الكمية التي يشربها هو،100ملي ليتر ،وبدفعة واحدة واذا لم تفعل يزعل ويغضب ويحتقر. لذا كنت ابتعد عن الجلوس على موائدهم،واقعد،مع بعض رفاقي الشيوعيون السوريون طبعا على مائدة بعيدة عنهم بقصد السلامة. أما الرفيق حسان زين العابدين من حمص، كان يقول أنا أحب الرفاق السوفييت وسأقف معهم على نفس الطاولة. ولا تمضي نصف ساعة وإلا حسان يغيب عن الأنظار...أين حسان؟ نبحث عنه ونجده تحت الطاولة شبه غائب عن الوعي.

كان على طلاب الطب أن يعملوا مدة شهرين في إحدى المشافي بصفة متدرب. فكان اختياري مشفى لينين في برلين. وهو من المشافي الكبيرة والمهمة في العاصمة وهو قريب من سكن الدكتور نايف بلوز أيضاَ.كنت أسكن عنده وأحيانا كنت استأجر غرفة بنفس البيت من صاحبته العجوز ايما، وهذا هو اسمها وهي أرملة برلينية رقيقة الطباع، منفتحة، مزوحة، تحب المال بنفس الوقت. كنت أعمل في المشفى من الثامنة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر أرتاح قليلا ثم نذهب نايف بلوز وأنا الى أحد المطاعم، نحتسي بيرة مع الطعام ثم نتحول إلى شرب النبيذ حتى منتصف الليل وخلال ذلك نستعرض احوال الدنيا وتياراتها

الفكرية والسياسية. كان نايف يؤكد دوما على أهمية ومحورية علم السبرنيتكا، أي علوم الكومبيوتر، في مستقبل مجتمعات الصناعة والعلوم عامة. كان هذا في منتصف الستينات من القرن الماضي ولكن كان همنا الأكبر ينصب على سوريا ومستقبلها وعلى حزبها الشيوعي المنوط به أن يلعب دورا هاما في رسم ملامح تطورها ونهضتها، وكيف هو بتركيبته الحالية سيكون عاجزاً عن القيام بدوره هذا، لأسباب عديدة وعلى رأسها غياب الحرية وعدم السماح لأحد في صفوفه، من طرح افكار جديده، واثارة موضوعات للنقاش. والفكر والتحديث لا يعيش بغياب الحرية وفي ظل قيادة الفرد الواحد الملهم المعصوم.

كنا، سوية، نستغرب عدم عقد مؤتمر للحزب رغم مرور أكثر من عقدين ونصف، على آخر مؤتمر في اواخر العام 1943وبداية العام 1944.

وكيف لحزب أن يعمل بدون برنامج سياسي عام.

بعد عودة خالد بكداش من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي بقيادة نيكتا خروتشوف الذي عرى ميكانيكية عبادة الفرد المتمثلة بالهرم ستالين وعن ضرورة العودة إلى تعاليم اللينينية بالديمقراطية المركزية التي تسمح بتعدد الآراء وطرح للموضوعات الجديدة، بكل حرية وأريحية، الى حين اتخاذ القرار بالتصويت وعندها يلتزم الجميع بهذا القرار.

عند عودته عقد اجتماعا اللجنة المركزية وقدم عرضا لما جرى في المؤتمر حول ضرورة التخلص من عبادة الفرد وضرورة توزيع المهام على كل أعضاء القيادة الخ وصدر بيان يلقي اللوم على اعضاء قيادة الحزب لأنهم يلقون كل المهام على أكتاف الأمين العام، دون أن يتحملوا اية مسوؤلية.شيء لا يعقل ولا يصدق.

كنا نايف وأنا لا نعرف بأن أفكارنا هذه كانت تجول بنفس الوقت في عقول الكثير من الرفاق في المنظمات الحزبية المختلفة في داخل الوطن.

جاء في العام 1968 إلى برلين قادما من دمشق الرفيق يوسف فيصل وطلب عقد اجتماع لكل رفاق المنظمة الحزبية في كل ألمانيا. وتحدث فيه عن الوضع السياسي العام بعد النكسة وأن سوريا تحكم من قبل عدس،لم نكن قد سمعنا بمصطلح عدس. فشرحه بالحكم العلوي الدرزي الإسماعيلي. ثم قال انا لم أقرأ كتب ماركس وانجلز ولينين كلها ومع ذلك طرحت شعار تشكيل الجبهة الوطنية على الساحة السياسية. استغربت كيف لقيادي في الحزب يتباهى بجهله وعدم دراسته لكتب الماركسية. وكيف أن شعار الجبهة الوطنية كان ديمتروف قد طرحه في العام 1936 أمام الأحزاب الشيوعية في مؤتمر الأممية الشيوعية، وبضرورة العمل مع كل الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية والليبرالية،

لتشكيل جبهة وطنية عريضة في كل بلد على حدة للوقوف أمام زحف النازية الفكري والسياسي.

بعد انتهاء الاجتماع الرسمي ذهبنا إلى قاعة معدة للطعام والاستراحة، وهناك تقرب منا نايف وأنا وسأل نايف الذي كان يعرفه جيدا من قبل ماذا تدرس أنت في برلين؟ أجابه نايف بسخرية والله أنا أدرس الجغرافية.

كان نايف مستاءً جدا من مما جرى وقال لي بئس حزبا لاتعرف قيادته بأن كادرا يحضر اطروحة في الفلسفة، وباشراف اهم استاذ فلسفة في ألمانيا مهتم بالفلسفة العربية الاسلامية.كيف لحزب أن يكون قياديا، وهو لا يهتم بأمور مفكريه وأصحاب الرأي، وأساتذة الجامعات في المستقبل.

-الفصل الحادي عشر-

في نهاية العام 1967، حضر إلى برلين بزيارة رسمية للحزب الاشتراكي الموحد في جمهورية ألمانيا الديموقراطية، الرفيق خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري. وكان من الطبيعي أن يلتقي بنفس الوقت مع أعضاء المنظمة الحزبية السورية. فطُلب منّا الحضور إلى برلين، من كافة المحافظات في ألمانيا الديموقراطية للقاء مع الأمين العام. ولمّا وصلنا إلى هناك أخبرنا الرفيق فايز الفواز، بأن الرفيق خالد مصاب بوعكة صحية على شكل أنفلونزا، وأن الأطباء طلبوا منه الخلود إلى الراحة، لكنه مصر مع ذلك على لقائه معنا، وبهذا انتصرت ديكتاتورية البروليتاريا على ديكتاتورية الأطباء. وطُلب منّا أن لا نكثر من الأسئلة، حرصاً على صحته. دخلنا إلى القاعة بالصف، وكان أمامي في الصف صديقي عون جبور، وقبل أن ندخل إلى القاعة بمسافة قصيرة جداً سمعنا صوت الرفيق خالد يجلجل في القاعة، فالتفت إليّ عون قائلا، ما شاء الله صوته أعلى من أجراس أورشليم القدس، وهذا وهو مريض، فكيف سيكون صوته وهو معافى؟ المهم جلسنا على مقاعد خشبية تشبه المقاعد المدرسية، وفوجئت بجلوس الرفيق الشيخ محمود الأطرش إلى جانبي. ولمن لا يعرف من هو محمود الأطرش أوضح ما يلي: هو ابن أبوين جزائريين هاجرا إلى فلسطين حيث نشأ وتعلم في مدارسها، وانتسب مبكراً إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني. ومن هنا عمل ضمن صفوف "كومنتيرن"، القيادة الأممية للحركة الشيوعية العالمية التي كلفته مع نجاتي صدقي، الفلسطيني أيضاً، برعاية الحزب الشيوعي السوري اللبناني، وعمل على تعريب الحزب، حتى العام 1936 عند عودة خالد بكداش من موسكو من المدرسة الحزبية. وكان محمود الأطرش يعرف الساحة السياسية السورية اللبنانية بدقة وبالأسماء. كان سبق لي أن تعرفت عليه في فندقٍ "**Sporthotel**" عند لقائنا مع الرفيق يوسف فيصل. واحتفظت له باحترام خاص.

تكلم الرفيق خالد عن الوضع السياسي السوري وعن دور الحزب الناشط به، وتحدث عن استشهاد أحد الرفاق من الفلاحين في الجزيرة السورية دفاعاً عن حقوق الفلاحين في وجه أصحاب الأراضي الزراعية الكبار "الإقطاعيين، وكيف أن استشهاده كان له صدى كبير

بين صفوف فلاحي المنطقة، ما جعل كثيرين منهم ينضمون إلى صفوف الحزب. وقال جملة مريبة أثرت في نفسي كثيرا، قال: "طبعاً نحن لم نكن نرغب بمقتل رفيقنا"! قالها بصيغة من يدافع عن نفسه، وكأنها موضع شك.

لم تطرح عليه أسئلة كثيرة حسب توصية الرفيق "فايز". وعندما هم بالخروج من القاعة، كان عليه أن يمر بين صفوف مقاعدنا، فقام الرفيق محمود الأطرش يريد أن يصافحه ويتحدث معه ولو قليلاً، فما كان من الرفيق "خالد" إلاّ أن تجاهله وأعطاه يده بسرعة خاطفة وتركها. رأيت في عيني الرفيق "محمود" الحزن والأسى وخيبة الأمل. وهذا ما ترك في نفسي انطباعا مؤثراً للغاية.

خرجنا من القاعة وتجمّعنا في ساحة المكان نتحدث عن انطباعنا عن هذا اللقاء. فجاء إلي أحد الرفاق وسألني بصوت منخفض، ألم تنتبه إلى "الجاكيت" الذي كان يرتديه الرفيق خالد؟ قلت: "لا". قال: "إنه جاكيت عتيق وكأنه اشتراه من البالة"، سوق الثياب المستعملة، "إنه جاكيت الشحادة". ثم قدم نحوي الرفيق زياد إدريس، وهو من محبي خالد بكداش المغالين، ويعرف موقفي النقدي اتجاهه، وأراد أن يحرجني أمام بقية الرفاق، فسألني بصوت مرتفع ما رأيك بالرفيق خالد؟ فأجبت بصيغة التورية: "الرفيق خالد في الأسرة، رئيسها، وفي القرية، مختارها، وفي العشيرة، شيخها، وفي الجمع، الآغا، وفي الحزب الشيوعي، الزعيم". فسكت على مضض، واكتفيت أنا بما قلت.

كنت وما أزال إلى اليوم، اعتبر الحزب الشيوعي داري، وبيتي، وأسرتي، وأهلي ووالديّ أبي وأمي.

ولكن مع الأسف في ذلك الوقت، قيادته أبي وأمي، قدّما لي صورة مغلوطة عن الأب والابن.

والآن أسمح لنفسي بالتحدث عن الجانب العاطفي في حياتي. ففي الشهر التاسع من العام ال1962، أي: في الصف الثاني طب، تطوعت مع رفاقي "الشيوعيين السوريين بكلية

الطب، للذهاب مع الطلبة الألمان إلى مساعدة الفلاحين في قطاف البطاطا. وفي إحدى الأمسيات، فيما كنت في المركز الثقافي للقرية ألعب "البلياردو"، لاحظت فتاة جميلة ذات عينين زرقاوين تميلان للخضرة، واسعتين بشكل ملفت، تحدقان بي طويلاً وبإعجاب واضح، فتبسمت وتبسمت واقتربت مني واقتربت منها، وسلمت فسلمت، فإذا بها فتاة خجولة بريئة مرتبكة وكأنها تتحدث لأول مرة مع شاب لا يعرفها ولا تعرفه. تركت لعبة "البلياردو"، وبدأت بمحادثتها، فعرفت منها أنها تدرس الطب معي في ذات الصف، وأنها من مدينة تقع في منطقة جبلية على مقربة من حدود "تشيكوسلافيا"، وتسكن عند سيدة ألمانية في مدينة "لاييزغ" في غرفة استأجرتها في شارع ليس بعيداً عن سكني في بيت الطلبة. سألتها عن اسمها، فقالت: "هانيلوري شرايتر".

تناقشنا في تلك الأمسية طويلاً حول أمور شتى، بينها قضية الإيمان بالله من عدمه، قالت: :إنها لا تؤمن بالله الذي تقدمه الكنيسة، ولكنها تؤمن بقوة واعية تقود العالم وتنظمه على طريقة الفيلسوف الألماني "هيغل".

في واقع الحال كانت "هانيلوري"، التي ستصبح زوجتي بعد سبعة أعوام، إنسانة مثقفة تتقن عدة لغات: "روسية وانكليزية وتتكلم الفرنسية". تتابعت حواراتنا كلّ مساء بعد انتهاء عملنا في الحقل.

وعندما انتهت فترة عملنا هناك، عدنا كلينا إلى مقاعد الدراسة في لايبزيغ. وكنا نتواعد على اللقاء مرة أو مرتين في الاسبوع. لم يكن في ذهني بذلك الوقت، إقامة علاقة دائمة، ولم أكن أفكر ابدأ بموضوع زواج مستقبلي، لسببين: الأول وهو الأهم، أن قيادة الحزب أبلغتنا بقرار يُمنع فيه عضو الحزب بألمانيا الديمقراطية من الزواج بأجنبية، ألمانية كانت أو غير ألمانية، (بلغارية أو هنغارية مثلاً) تدرس أو تقيم في ألمانيا.

والسبب الثاني، شخصيٌ يعتمد على واقع أنني لا أفضل الزواج من أجنبية بدوافع وطنية بحتة، وأخرى سياسية، لأنه من المعلوم في ذلك الزمان، أن نظرة المجتمع للمتزوج من

أجنبية، فيها ملامح الشكوك بانتسابه للوطن، ومن جهة أخرى، من يريد من الشيوعيين أن يتطور في مدارج العمل الحزبي، عليه أن لا يكون متزوجاً من أجنبية خاصة أوروبية.

كان رفاقي من الأصدقاء المخلصين، قد تعرفوا عليها، وكنّا في الغالب نجلس ونتحدث سوية.

وكانت لغتها العربية ونطقها بتحسن وتطور من يوم لآخر، ذلك لأنها انكبت على دراسة العربية، وكانت تمضي ساعات طويلة في المساء والليل وهي تستمع إلى إذاعة القاهرة على الموجة القصيرة، وكانت الإذاعة العربية الوحيدة التي تصل إلى ألمانيا في تلك الأزمان.

حين تعرفت عليها كانت إضافة إلى اللغات التي تتقنها، ومنها اللاتينية أيضاً، تعزف البيانو بإتقان، عن طريق معلم خاص يحضر إلى بيتها، وتجيد السباحة، بل تحمل وسام بطولة فيها، وتجيد لغة "الاختزال"، حاصلة على شهادة قيادة سيارة، تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة، وتجيد التزلج على الثلج، وتمارس رياضات مختلفة. كانت إلى ذلك كله جميلة الوجه، رشيقة القوام، تتمتع بخلق سام وتواضع جم، ولهفة فوّارة.

دفع هذا كله أصدقائي كي يقولوا لي: "إنك محظوظ فوق العادة بتعرفك على هذه المرأة الملاك، ولن تلقى بحياتك امرأة مثلها، وإنها ظاهرة لن تتكرر، فاغتنم الفرصة وتزوجها، بل عليك أن تتزوجها".

من جهتها كانت مرتبطة بي بحب غير معقول يفوق الوصف. وكنت أقول لها: "لأنني أحبك لا أرغب أن أتزوجك، فطريقي صعب جداً مليء بالأشواك في وطني، وأمامي خدمة العلم العسكرية لمدة سنتين ونصف، دون دخل مادي يذكر، ثم أمامي خدمة الريف كطبيب، والريف يا عزيزتي في بلادي، ليس كريف ألمانيا، ففي أغلب القرى لا يوجد كهرباء، وأحيانا لا يوجد شبكة مياه". فكانت تقول لي: "أنا مستعدة للعيش معك في أصعب الظروف وأشدها هولاً".

-الفصل الثاني عشر-

في صيف العام 1966، وبعد حركة الثالث والعشرين من شهر شباط، وانفراج الوضع السياسي والأمني بين حزبنا الشيوعي والبعث الحاكم، وتعيين أول وزير شيوعي في الوزارة الجديدة، هو المثقف سميح عطية، قررت السفر لوحدي إلى الوطن بعد غياب دام سبع سنوات، مليئة بالشوق لأحضان العائلة والأقارب والوطن، وبعد لوعة عذاب الغربة

والتشرد. ساعدني في ذلك حصولي على بطاقة سفر مخفضة جداً بالقطار، كوني أحمل هوية انتساب إلى "اتحاد الطلاب العالمي". وقمت بتجهيز عدة "ساندويشات" تكفيني طوال فترة السفر. مررت في الطريق على دول عديدة تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا، يوغوسلافيا، اليونان، وتركيا، ثم بالباص إلى لواء اسكندرون السليب، الجميل الخصيب الأخضر، ثم إلى باب الهوى الحدودي مع سوريا، وجدت بانتظاري شقيقي لبيب، الذي كان لي بمثابة الأخ والأب والصديق، ومن هناك توجهنا إلى حمص العدية. دخلت إلى بيتنا وكان الوقت ليلاً، وإذا بي أشعر ببرودة وحزن وألم ينتابني من الأعماق، نظراً لافتقادي، عمود البيت وشمعته وضياءه، والدتي ووحبيتي، "أم أديب"، فانفجرت ببكاء ونحيب دام طيلة الليل. لم ينته إلّا بلقاء السيد الوالد وشقيقتي وصديقتي أنطوانيت وأشقائي في الصباح.

قضيت في حمص وقتاً ممتعاً، بلقاء الرفاق والأصدقاء والمحبين من الأقارب، وأذكر فرحي بلقاء أستاذي وصديقي ورفيقي حنّا عبود، صاحب الثقافة الواسعة والهوية الشيوعية واضحة المعالم.

لا أخفي أنني وإياه، رغم المودة الشديدة، خضنا نقاشات مريرة حول الصين وثورتها الثقافية العنيفة بقيادة الزعيم الصيني "الأوحد" ماوتسي تونغ، وكان من المتحمسين له.

في ذلك الحين كان شقيقي فيليب الذي يكبرني بإحدى عشر عاماً، قد رزق بطفل جميل جداً أسماه نزار، تعلّق بحبه بل بعبادته إلى درجة لا توصف، يحرص عليه بقلبه وعينيه، ولا يسمح لنا بالاقتراب منه إلّا من مسافة حرصاً على صحته من العدوى. أخي أبو نزار هذا رجل عطوف، محب، كريم، شهم، شجاع، قلّ مثيله في الرجال، جميل المحيا ذو خلق كريم، صاحبني إلى المطاعم والمنتزهات، وإلى المتاجر، مبتاعاً لي ما يلزم وما لا يلزم من الألبسة، الداخلية والمناشف، والقمصان والأحذية.

قبل انتهاء إجازتي بوقت قصير، توجهت إلى دائرة الهجرة والجوازات في حمص، للحصول على جواز سفر جديد بعد أن شارف جواز سفري على الانتهاء. وهناك بعد تقديم الطلب، اقترب مني شرطي وقال لي: أنت رهن الاعتقال، لان هناك مذكرة اعتقال بحقك.

تفاجأت جداً، بهذا الموقف، وخصوصاً أني تجاوزت الحدود حين قدومي، دون أن يعترضني أحد. فقلت له، لا بل رجوته: أن يغضّ الطرف عني، ويعتبر نفسه لم يرني إلى الغد، لأني سوف أرجع إليه بالتأكيد للحصول على جواز السفر. فاقتنع الرجل عن طيب خاطر.

ذهبت بعدها إلى صديق مقرب، جمعتني به صداقة حميمة رغم أننا لم نلتق وجها لوجه سابقاً، بل تعارفنا من خلال أصدقاء مشتركين، وفي مقدمتهم رفيقي وصديقي الشيوعي المخلص الدكتور شكر الله عبد المسيح. وكان أيضاً زميلاً لأخوي أديب ولبيب في المدرسة، هذا الشخص النبيل يدعى أديب السمين، رحمه الله، وكان يعمل مخلصاً جمركياً، وله صداقات مع رجال الجيش والمخابرات بحكم العمل والجيرة في المكاتب. صحبني فوراً إلى قبو أحد فروع الأمن، لم أعد أذكر اسمه ولا اسم رئيسه، الذي تكلم معه "السمين" على انفراد. قالوا لي في الفرع: سوف نسوي لك وضعك، ولكن عليك أن تكتب لنا تقريراً مبسطاً عن عائلتك ودراستك وسبب قدومك إلى الوطن.

كتبت دون أن أتعرض من بعيد أو قريب لقناعتي الفكرية والسياسية. كان أمراً روتينيا لا غير. وأعطوني ورقة تثبت تسوية وضعي. ثم ذهبت في اليوم التالي إلى دائرة الهجرة والجوازات، وحصلت على جواز سفر جديد، بعد أن قاموا بقص زوايا الجواز القديم، ولم أصدف الشرطي الذي ساعدني في الأمس.

لا بد أن أذكر أن قرار الاعتقال بحقي صدر أيام الوحدة مع مصر خلال مرحلة اعتقال وملاحقة الشيوعيين السوريين في بداية العام 1959.

وما يجب ذكره أيضاً أن المصنفات "والأضابير" الأمنية يحتفظ بها دوماً حتى مع زوال أنظمة وحلول أنظمة أخرى جديدة مكانها.

ومن الطريف أن أذكر أن تأشيرات الذهاب والإياب الممنوحة لي من خمسة دول، كانت مسجلة على جواز سفري القديم المنتهية صلاحيته، والمكتوب عليه باللغة الفرنسية أنه

ملغى، بالإضافة إلى قص زواياه العليا والسفلى من قبل دائرة الهجرة والجوازات السورية، ولم يكن الوقت متوفراً لي للحصول على تأشيرات جديدة لخمسة بلدان من سفاراتهم في دمشق. لذلك غامرت بالسفر مستعملا جوازي القديم، وبالفعل مررت على حدود هذه البلدان كلها، دون أن ينتبه رجال الحدود إلى هذا الأمر.

وصلت إلى لايبزيغ متعباً بعد سفر خمسة أيام متواصلة بالقطار، ومع ذلك استقبلت زيارات رفاقي وأصحابي المهنئين بالوصول، والمستفسرين عن الأوضاع في سوريا. المهم أنني عدت لمتابعة الدراسة في السنة الأخيرة طب، وتحضيراً للفحص الحكومي الأخير الذي اجتزته بدرجة جيد.

في العام 1967 قبل الهزيمة على ما أذكر، حضر إلى ألمانيا الديمقراطية بزيارة رسمية وزير الزراعة والإصلاح الزراعي عبد الكريم الجندي. وكانت تربطني صداقة بشقيقه الدكتور فيصل الجندي، الذي كان يقيم في مدينة لايبزيغ أيضاً، وهو يحضّر للحصول على شهادة الدكتوراه في علم الصيدلة والمخابر الطبية. وكان من الطبيعي أن أذهب مع صديقي فيصل إلى الفندق الذي يقيم فيه شقيقه الوزير، الذي بدأ يحدثنا عن انطباعاته خلال تلك الزيارة التي تمثل له أول احتكاك بالحضارة الأوربية. كان عبد الكريم الجندي كتلة من الحماس والنشاط في سبيل تحقيق أهدافه الطبقية في مساندة العمال والفلاحين، لكنه كان رجلاً ضعيف الثقافة، وليس على معرفة بتطور العلوم وتطبيقاتها الحديثة.

حدّثنا مرة عن زيارته لإحدى المداجن، وقال: سألتُ مدير المدجنة عن نوعية تغذية الدجاج فقال لي: إنهم يراعون في العلف التوازن الغذائي، من نسب معينة من البروتين والسكريات والدهوّن والفيتامينات، وبعض المعادن مثل الفسفور وغيره. فاندهشت واستغربت. ثم أردف بالله عليكم، ماذا يأكل الدجاج في بلدنا سوريا! إنه يأكل من روث وفضلات الحيوانات، وسمّاها بالاسم الدارج، فعلى ماذا نحن منتفخون بذواتنا ونحن في مؤخرة العالم.

ثم أضاف إنه طلب مقابلة مع راعي أغنام، وأصر على طرح أسئلة مباشرة عليه، ودون تدخل أي وسيط، فكان له ذلك. قال: سألت الراعي، هل تعلمت الكتابة والقراءة؟ فضحك

الراعي وأجابني: بأنه درس في المدرسة لغاية الصف العاشر، (وهذا أمرٌ إجباري لكل الطلاب في ألمانيا الديمقراطية)، ثم درسَ في مدرسة لإعداد الرعاة مدة ثلاثة أعوام. فسأله الوزير مستغربا ثلاثة أعوام! قال الراعي: نعم. فسأله الوزير: وماذا تتعلمون في هذه الفترة الطويلة؟ قال الراعي: نتعلم فصول السنة وأجواءها المناخية من مطر وبرق ورعد، إلى الحر والجفاف، بالإضافة إلى علوم التربة وخصائصها، كذلك أنواع النباتات الصالحة للرعي، وتجنب ما هو سام منها خصوصاً الفطور السامة، وأيضاً جز الصوف في أوقات محددة، وغيرها من المعارف والعلوم والخبرات. فقال: دهشت أي اندهاش، وكنت أعرف رعاة بلدنا من الجهلة والفقراء. وقد كنت في الشهر الماضي أوزع شهادات ملكية لفلاحي بعض القرى، حسب قانون الإصلاح الزراعي، فوصل الدور لأحد الفلاحين، الذي حاول تقبيل يدي، فقمت بصفعه على وجهه، وقلت له: نحن نوزع عليكم الأرض حتى تستعيدوا كرامتكم، وأنت تحاول تقبيل يدي مذلة وهوانا!

هكذا يتصرف عبد الكريم الجندي في حالة غضبه، يقوم بالضرب. وهو طبعاً تصرف خاطئ وجاهل أيضاً. كان رجلاً ثورياً من طراز "البغو"، دون معرفة بالنظرية الثورية، ومن أين له ذلك وهو خريج مدرسة عسكرية لا غير. وهو بطبعه غضوب شرس أحياناً كثيرة.

تجرأت على عادتي الدائمة، وسألته عن سبب علاقته السيئة مع الشيوعيين، فقال: هناك شيوعيون سيئون يأخذون أوامرهم من موسكو، وعلاقتهم بالوطن وشعبه مريبة، وهناك شيوعيون "أوادم" ووطنيون ومثقفون أجلُّهم وأحترمهم. ثم قال: في بداية الثورة "يقصد 8آذار" علمتُ باعتقال شيوعيٍ مستقيم ومثقف محترم، اسمه وصفي البني من مدينة حمص، فقمت بنفسي بالذهاب إلى سجن المزة العسكري في دمشق، وفتحت باب الزنزانة بنفسي وأطلقت سراحه، وأوصلته بسيارتي إلى بيته، معتذراً منه عن التعسف الذي تعرض له.

كان هذا عبد الكريم الجندي الذي عرفته لأيام قلائل، وكتبت عنه في مذكرات فقدتها في ذلك الوقت، بأنه إذا تعلم ودرس فقد يكون "أرنستو غيفارا سوريا". كان هذا ما كتبته عنه وأنا شاب قليل التجربة، شديد الحماس، أميل إلى المبالغة والأحكام السريعة.

وبهذا الصدد، أتذكر في تلك المرحلة أنه كان يدرس بيننا عدد من أقارب قياديين في سلطة البعث، إضافة إلى الصديق فيصل الجندي، منهم المرحوم شمس الدين الأتاسي، شقيق المرحوم الرئيس نور الدين، وكان شخصاً متميزاً بالتواضع، واللطف والتهذيب، والانفتاح على الآخرين، بعيداً عن معاداة الشيوعية، بل على العكس من ذلك، كان يدرس الماركسية بجدية واضحة. ومنهم أيضا الصديق طارق الزعيّن، ابن أخ الدكتور يوسف الزعين، الطبيب الذكر رئيس مجلس الوزراء، وقد درس طارق الطب وتخصص في الجراحة العصبية في برلين، وما زال يقيم فيها. ومنهم أيضاً الدكتور في الأدب الألماني من جامعة كارل ماركس في مدينة لايبزيغ، حسين عمران، شقيق العقيد علي عمران القيادي في الجيش السوري، والذي تجمعني به إلى الآن صداقة مميزة وعلاقة احترام متبادل ومودة، بعد خصام حاد، إثر حادثة يجب ذكرها في حضنها السياسي. في تلك الفترة من منتصف الستينات كان هناك تنظيمان للطلبة السوريين، واحد في الداخل ويدعى الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، يسيطر عليه الحزب الحاكم، "البعث العربي الاشتراكي"، وآخر يدعى اتحاد الطلبة السوريين خارج الوطن، ويسيطر عليه الحزب الشيوعي السوري، وله فروع في جميع دول المعسكر الاشتراكي، بالإضافة إلى تنظيم طلابي في فرنسا، من وجوهه البارزين المرحوم الصديق الدكتور عصام الزعيم.

وكان الاتحاد الوطني لطلبة سوريا يضغط علينا ومن وراءه السلطة في دمشق باتجاه حل اتحاد الطلبة السوريين في الخارج وانضمامنا إليه. وفي احدى الاجتماعات للطلبة في لايبزيغ وكنت أترأسه، بدأ الطالب "حسين عمران" بإثارة الشغب والحديث بدون طلب الأذن بالكلام، فطلبت منه الخروج فوراً من القاعة، خاصة وأنه غير مدعو للحضور أصلاً. خرج غاضباً متوعداً، فتصديت له مرة أخرى.

وبعد يومين تقابلنا في مطعم الطلاب، فتوجه إلى بالكلام قائلاً: أنا معجب بشجاعتك، أنت تعرف من أنا، ومع ذلك طلبت مني مغادرة القاعة، ولم يتجرأ أحد غيرك، أنا أحب الشجعان، ولذلك سوفَ أحرص على صداقتك، ثم دارت الأيام وأصبح حسين عمران سفير سوريا في برلين، عاصمة ألمانيا الموحدة، حيث أصبحتُ أعيش أيضا، وذلك حوالي العام 2000، فعادت العلاقة لسابق عهدها، وكثيراً ما زارني في بيتي. وكنت أصارحه برأي المعارض وبأسبابه طبعاً، وكان يقول أنا أتفق معك، ولكن دعونا نتيح فرصة لهذا الرئيس الشاب، يقصد "بشار"، الذي يرغب بالإصلاح، وسوف يغير الأوضاع بالتأكيد. "لكن يقين صديقي لم يكن في مكانه".

بالعودة إلى لايبزيغ، كنا عدداً من طلاب الطب الشيوعيين، على أبواب التخرج ولم ننه فحوصاتنا بعد، عندما اندلعت حرب حزيران ذات الأيام الستة، فكان طلب قيادة الحزب أن نستعد للسفر قريباً جداً إلى دمشق للمساعدة الطبية بالحرب وإسعاف المصابين من الجنود والضباط، وكان هناك تململ من بعضنا، خوفاً من انقطاع الدراسة، وقد شارفت على الانتهاء، وإذا عدنا فسيحتاج الأمر إلى انتظار عام كامل حتى الامتحانات المقبلة، وهي امتحانات دولةٍ. لكن قبل أن نسافر، جاء خبر من القيادة، أن لا داعي لحضوركم، نظراً لعدم وجود إصابات تذكر. وبالفعل علمنا فيما بعد أن الجيش السوري لم يقاتل في الجولان أصلا، وأنه تلقى أوامر بالانسحاب من هناك، دون قتال، وبشكل انفرادي وفوضوي.

في شهر تشرين الأول من العام 1967 تخرجت طبيباً من جامعة كارل ماركس في مدينة لايبزيغ، وكانت قيادة الحزب الشيوعي في دمشق قد أصدرت قراراً يقضي بالعودة الفورية إلى الوطن لكل الخريجين، ولكنها عادت عنه بعد أن علمت أن خريجي الطب في ألمانيا لا يمتلكون أي خبرة عملية بعد إنهاء دراستهم النظرية، وسمحت لنا بالعمل سنة واحدة بعد التخرج. كنت أرغب بمغادرة مدينة لايبزيغ لأنني لم أكن منسجماً مع أهلها من السكسون، المنغلقين على أنفسهم، ولدى الكثير منهم نزعة تكبّر وعدم ترحيب بالأجانب، بل التوجس منهم، وهذا الموقف لا يزال مستمراً إلى يومنا هذا، فحزب المبادرة لألمانيا في أقصى اليمين المتشدد، يحصل على نسبة عالية من أصوات الناخبين، رغم مرور أكثر من ثلاثين

عاماً على الوحدة الألمانية، وأكثر حوادث الاعتداء على الأجانب، والتحرش بهم وإهانتهم تجري هناك. لذلك قررت التوجه إلى برلين عاصمة ألمانيا الديموقراطية للعمل هناك.

فغالبية سكان برلين منفتحين على الآخر، ينزعون إلى المرح والنكتة والطرب، حصلت على عقد عمل لمدة سنة مع معهد التخدير والعناية المشددة في أكبر مشافي برلين، الذي يحتوي على سبعة وعشرين سريراً للعناية المشددة، وبذلك يكون أكبر قسم في أوروبا كلها. والمشفى موزع على أقسام في كل مجالات الطب، ويبلغ عدد أسرته الإجمالي سبعة آلاف سرير، بدأت العمل في بداية العام 1968.

وكان يعمل معي بهذا المشفى في ذات الوقت المرحوم الدكتور سلطان أبا زيد، والطبيب الفلسطيني يعقوب زيادين، في قسم جراحة الأنف والأذن والحنجرة، والذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً للحزب الشيوعي الفلسطيني.

وفي برلين انضممت إلى فرقة الحزب هناك، وكانت تضم عدداً من الرفاق أذكر منهم الرفيق توفيق رضا، الذي ما يزال على قيد الحياة، وكان يدرس الاقتصاد، وهو شاب رقيق جداً، كريم مضياف وطيب إلى أبعد الحدود، والرفيق مصطفى شاكر، وكان يدرس الاقتصاد أيضاً، وهو صاحب قلب ذهبي، محب وفي كريم، والرفيق نومي حيدو، وكان أصغرنا عمراً، جاء ليتعلم مهنة تتعلق بالآلات الزراعية، ونتيجة لاجتهاده تخرج مهندساً لتصميم هذه الآلات، وهو أيضا شاب جميل المحيا والخلق والطباع، كريم اليد، عفيف اللسان، صديق دائم إلى اليوم، يعيش ويعمل بالسويد، وكان معنا الرفيق معتصم بالي درس الاقتصاد أيضاً، والرفيق ماهر خيارة المتوفى في ليبيا في ظروف غامضة، والرفيق شوقي كدّو من دير الزور، يعمل حالياً في المملكة العربية السعودية، على درجة كبيرة من النجاح، ودرس الاقتصاد والمحاسبة.

كنا على درجة عالية من الانسجام نلتقي نهاية كل أسبوع، في أماكن سهر لطيفة في برلين وفي بيوتنا كذلك، على طعام عربي من صنع أيدينا.

ومن ضمن مجموعتنا البرلينية في ذلك الوقت، شخصية علمية وسياسية، يعدّ دكتوراه في الاقتصاد السياسي، يدعى محمد سعيد النابلسي من مدينة جبلة الساحلية، تعرفت إليه أولاً في لايبزيغ، حيث قدم في العام 1963 لدراسة اللغة الألمانية. وأشير هنا "أن جميع القادمين لألمانيا الديموقراطية بقصد التحصيل الجامعي، كانوا من طلاب معهد اللغة في لايبزيغ"،

كنا نناديه، كما كان يرغب، باسم سعد. وسعد هذا كان قبل "انقلاب 8 آذار"، بعثياً من سكان دمشق، وخريج القاهرة بالعلوم الاقتصادية. بعد الانقلاب مباشرة عيّن مدير إدارة "الريجي" باللاذقية، وهو منصب مهم جداً بالمحافظة في حينه، تعرض فيه الرشاوى بأرقام كبيرة، ولكنه لم يتورط بهذه المفاسد وحافظ على شرفه وكرامته، وشارك في أول مؤتمر للحزب بعد الانقلاب، شريكا مع كتلة اليساريين أمثال نبيل الشويري، وياسين الحافظ، الذين كتبوا المنطلقات السياسية لحزب البعث العربي الاشتراكي. وتعرف أكثر على الفكر الماركسي وأصبح من أنصاره، بعدها مباشرة جاء إلى لايبزيغ تحضيراً للحصول على الدكتوراه.

منذ أيام لايبزيغ نشأت بيننا علاقة صداقة، ندر مثيلها، دامت 57 سنة، إلى حين وفاته قبل عامين. سعد ترك حزب البعث رسمياً في ألمانيا وأصبح صديقا لحزبنا، وهو رجل خلوق ومهذب جداً، وقارئ نهم، حصل على شهادته وعاد إلى دمشق مدرسا في جامعتها، وكان في فترة تواجده في اللاذقية على علاقة طيبة مع حافظ الأسد. ومن الطريف أن أذكر الحادثة التالية، التي برهنت على تعاليه عن المناصب وعدم التخلي عن القناعات السياسية المشرّفة.

في فترة تكليف حافظ الأسد للدكتور عبد الرؤوف الكسم بتشكيل الوزارة، طلب من الأخير أن يعرض على الدكتور سعد النابلسي، صديقه القديم، أي وزارة يرغب بها. وبالفعل اتصل عبد الرؤوف الكسم بسعد النابلسي وطلب حضوره إلى مكتبه. حضر سعد فإذا "بالكسم" يقول له إن "الرئيس طلب مني أن أعرض عليك منصب الوزارة، فأي وزارة من ثلاث ترغب بها، وزارة الاقتصاد أم وزارة التجارة الخارجية، أم وزارة التموين؟" فقال له سعد: أمهلني للغد، حتى أعطيك جوابي.

تعجب عبد الرؤوف الكسم من هذا الموقف بل أبدى اندهاشه، قائلاً: "إن الناس تنتظر على الباب، وخصوصاً رؤساء أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية، للحصول على وزارة ما، وأنت تتردد وتطلب الانتظار في إعطاء الجواب إلى الغد، رغم رغبة السيد الرئيس! ومع ذلك لك ما تريد". غادر سعد المكتب واتصل أولا بصديقنا المشترك، نايف بلّوز، أو قام بزيارته، لست متأكداً، وطبعاً كان جواب نايف "إياك ثم إياك"، واتصل معي هاتفياً إلى ألمانيا، وسألني عن رأي. فقلت: "يا سعد، هؤلاء يريدون توريطك بالفساد ثم يتخلون عنك. حرام عليك أن توسخ سمعتك النزيهة".

ثم تكلم مع شقيقه الأكبر العميد مصطفى النابلسي بهذا الخصوص، فقال له: "يا أخي أنا أعرف كل مساوئ وفساد السلطة أكثر من غيري، لكن يبدو أن شيئاً لن يتغير بالمدى المنظور، فشارك بهذه الوزارة، علك تستطيع تحسين الأوضاع".

في اليوم التالي ذهب سعد إلى مكتب عبد الرؤوف الكسم، وأبلغه أسفه واعتذاره عن هذه المهمة.

-الفصل الثالث عشر-

تابعت عملي في المشفى البرليني الضخم، المؤلف من قسمين، الأول نظري، وهو مختصر، والثاني عملي، وهو الأساس نمضيه في غرف العمليات الجراحية بتخدير المرضى ، من الثامنة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر، مع فرص للفطور والغداء. بدأت أكتشف أهمية هذا الفرع في عالم الطب وما يتطلبه من معارف نظرية وتركيز للحواس، ورشاقة في اليدين ومهارة في الاصابع، ونشأت علاقة إعجاب وحب لهذا الإختصاص، الذي كان في بدايات الإعتراف به وتقدير محورية دوره في الطب الحديث. كان علينا نحن طلاب الإختصاص من الأطباء، أن نعمل في قسم العناية المركزة، لفترات محددة، هناك تجري معالجة الحالات الحادة من إصابات حوادث السير إلى حالات التسمم، الى متابعة علاج المرضى بعد العمليات الجراحية المعقدة والطويلة بالتنفس الاصطناعي، وتغذية المريض عن طريق الوريد تغذية كاملة تحتوي السكر والبروتينات والدهن والفيتامينات.

كنت في نهاية الاسبوع ألْتقي مع رفاقي وأصحابي في بهو ومطعم أفضل الفنادق، وكان أفضلها فندق البورولينا.

وطبعا كانت أسعار الطعام والشراب بأنواعه المختلفة رخيصة جداً، ولا تقارن بأسعار اليوم المرتفعة على الإطلاق.

في هذا الفندق تعرفت على تاجر سوري من اللاذقية، حائز على أغلب وكالات المنتجات الألمانية الشرقية الصناعية، يدعى محمد إسرب وزوجته السيدة عفاف، أم زياد المرافقة له دوما أثناء إقاماته الطويلة في برلين. أبو زياد كان رجلاً هادئاً متزناً، طيب القلب ودوداً، وأم زياد سيدة جميلة، ذكية، سريعة البديهة، قوية الشخصية قل مثيلها، محدثة طليقةُ اللسان، كريمة اليد، محبة، وفية، أنيقة. مع الوقت توطدت بيننا علاقة صداقة متينة دامت عشرات السنين حتى وفاتهما. ومن أسباب هذا، أن أبا زياد أخبرني يوماً بان نزيفاً أصاب أم زياد وهما قلقان بشأنه ما عساه يكون السبب.

قلت له: غداً صباحاً، عليكما القدوم الى المشفى الذي اعمل فيه، لإجراء تجريف رحم، وكانت نتيجة الفحص المجهري ورم خبيث في عنق الرحم...، وكنا محظوظين أننا استطعنا تدارك الامر وإنقاذ حياتها التي كانت في خطر حقيقي.

تعافت من مرضها سريعاً وبقيت تعتبر أنني من أنقذها إلى أخر يوم في حياتها الطويلة، ولما عدت إلى سوريا كانت حريصة على تكريمي ومساعدتي بكل الطرق والإمكانات .

الخامس عشر من شهر آذار 1969 توجهت بالقطار الى مدينة كارل ماركس، الان بعد وحدة ألمانيا،عادت المدينة الى اسمها القديم، "كمنيتز"، وكان الجو بارداً جداً والثلوج تهطل بكثافة، مما جعل القطار يتاخر عن موعد وصوله مقدار ساعة من الزمن، وكان علي أن أركب الباص المتجه إلى مدينة أنابيرغ، حيث تسكن صديقتي هانيلوري، ولكن الباص الأخير كان انطلق قبل وصولي قطاري الذي تأخر. في هذه الحالة كنت مضطراً أن أركب تاكسي حتى أصل إلى هدفي مهما كلف الأمر، حيث أنها تنتظرني، وخصوصاً لان اليوم التالي موعدُنا في دار البلدية في مكتب الزواج المدني لعقد زواجنا، بعد علاقة صداقة دامت سبع سنين، وأنا اقوم بفحصها أصعب الفحوصات وأجربها أشد التجارب وكانت تجتازها بكامل النجاح. وعندها قررت الزواج معها.

وقفت على موقف التكسي أنتظر دوري، والبرد ينخر عظامي، وعندما ياتي دوري يسألني السائق إلى أين؟ أقول: لأنابيرغ، فيرد: أنا متأسف. والسائق التالي والذي بعده نفس الجواب.

وأخيرا تكلمت مع سائق ووعدته بدفع أي مبلغ يريده، دون التقيد بالعداد. فوافق.

ركبت بعدما أصابعي قد أصبحت زرقاء من شدة الصقيع. وسألته: لماذا لا يرغب أحد من السائقين السفر الى أنابيرغ؟ قال لأن الطريق لا زال محفراً بعد مرور دبابات الجيش المتجهة إلى براغ لسحق الانتفاضة الشعبية قبل عام، أي في العام 1968.وأنابيرغ تقع على الحدود التشيكية.

المهم وصلت وأنا أحمل هدية العرس، وما هي إلاّ سطل من مسحوق الغسيل **Persil**.

كنت أريد من هذهِ الهدية أن أقول لها بان أيام الزواج ليست عسلاً وسعادة كلها، بل غسيلا وكويا ومسحا وتنظيفا وطبخا وتعباً.

قامت هانيلوري بإعداد الماء الساخن مع الملح ووضعت يداي المتجمدتين فيه، وبعدها قدماي أيضا.

في الصباح توجهنا، نحن الإثنين فقط، الى مكتب الزواج ووقعنا عقد زواجنا، الذي استمر لسبعة وأربعين عاماً، حتى يوم وفاتها الحزين في يوم 4.10,2016.

في المساء توجهنا إلى بيت أخيها الأكبر للاحتفال بزواجنا. كنا سبعة أشخاص فقط.

لم نتوجه إلى الكنيسة أبداً، لأن أعصابنا لا تتحمل المسرحية الهزلية لعقد الزواج الكنسي.

في يوم الاثنين داومت على عملي في المستشفى الذي أعمل فيه في برلين.

في شهر أيلول، على ما أتذكر انعقد في برلين مؤتمر لمجلس السلام العالمي بحضور وفود من بلدان متعددة، ومنها وفود عربية رسمية وشعبية، أتذكر منها وفداً مصر ومن أهم وجوهه الكاتب والمفكر البارز لطفي الخولي، ومن لبنان وفد أهم وجوهه المناضلان الشيوعيان كريم مروة، وجورج البطل رحمه الله، ومن اليمن أيضا اتذكر عبد الله باذيب، ومن سوريا وفد حكومي برئاسة الدكتور حبيب حداد، ووفد شعبي برئاسة عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري، ابراهيم بكري، ضم أيضا الدكتور مصطفى أمين وفايز جلاحج وآخرون لم أعد اتذكرهم. قمت بزيارتهم في الفندق الذي انعقد فيه المؤتمر، وكان الرفيق إبراهيم بكري، يعرفني من خلال زيارة سابقة له إلى برلين. وطلب مني أن انضم الى الوفد فوراً، ونادى على رفيقنا فاروج سلاطيان وطلب منه أن يصدر لي بطاقة عضوية بالمؤتمر. والرفيق فاروج سلاطيان كان يعمل في قيادة مجلس السلم العالمي، وهو إنسان نشيط جدا ، وحيوي، ويشكل لولب المجلس.

كنت والرفيق الشاب فايز جلاحج الملقب حزبياً بابو جورج، نتصل بكل الوفود ونشرح لهم موقف الحزب السياسي ونعلمهم بنتائج المؤتمر الثالث للحزب المنعقد في صيف 1969، كان ابراهيم بكري يعرب عن رأيه النقدي بوضوح تجاه خالد بكداش، وكذلك مصطفى أمين وفايز جلاحج وأنا مع نفس الموقف.

بعد انتهاء المؤتمر، بدأت بعملية التحضير للسفر إلى الوطن، قاطعا أنا وزوجتي متابعة الحصول على شهادات الإختصاص، بعد أن علمت بمرض والدي الذي كان يسكن مع شقيقي لبيب وحدهما بعد وفاة والدتي، وكان شقيقي يعمل متعهداً صغيراً، ووالدي المريض يبقى أغلب الوقت لوحده وبحاجة إلى عناية ماسة.

كانت زوجتي قد ورثت من والديها المغفور لهما جهاز بيت كامل وترغب بنقل أغلبه إلى سوريا، ولذا كان علينا نقل الخفيف منه من بورسلان وطناجر وصحون ونسيج منزلي من مناشف وملاحف وأغطية إلخ وكتب وجهاز تخطيط قلب وميكروسكوب، وعدة جراحة صغرى وأدوات فحص الأذن والحلق وغيرهم، عن طريق النقل البحري قبل سفرنا.

وقبل أن نترك برلين أود أن أذكر الحادثة التالي:

في العام 1968 انعقد المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني، على ما أذكر وكان من مخرجاته الهامة التقرير السياسي والبرنامج الجديد، كان معنا في الدراسة رفاق من لبنان أعطوني هذا الكراس، قرأته بعناية وما فيه من نقد لسياسة خالد بكداش، والموقف الإيجابي اتجاه الثورة الفلسطينية، وتأييد حركة التحرر الوطني العربية، وضرورة رسم سياسة الحزب حسب الوضع الواقعي، وبشكل مستقل، بكلمات أخرى رفع وصاية القيادة السوفياتية. كل هذا أثلج صدري ودعم قناعتي، فقمت بطبع حوالي ثلاثين نسخة عنه وزعت عشرة منها على بعض الرفاق في لابزيغ، وأعطيت ما يقارب العشرين منها إلى الرفيق توفيق رضا في برلين.

في زيارة ليوسف فيصل في هذا الوقت لبرلين أخبره الرفيق توفيق البريء سياسياً، وطيب القلب، بأنني أعطيته نسخ عن برنامج الحزب الشيوعي اللبناني، فطلب يوسف أن يحضرهم له، ففعل الرفيق توفيق، وقام يوسف فيصل باتلافهم فوراً.

في العاشر من شهر كانون أول عام 1969 توجهت طائرتنا الى دمشق، بعد ليلة الوداع الطويلة التي نظمها رفاقنا وأصدقائي في برلين، وصلنا الى دمشق منتصف النهار، وكان في استقبالنا في المطار، عدا صديقي العزيز نايف بلوز، جمع من الأهل والاقارب، وكان من جملتهم ابنة خالة لي تحدثت مرحبة بزوجتي التي تتمتع بجمال فيه مسحة شرقية واضحة، فاسرعت إلي لتقول كيف خدعتنا بأن زوجتك ألمانية، هذه عربية بكل تأكيد؟ وبالفعل زوجتي خلال سنوات معرفتنا السبع أصبحت تتكلم العربية بشكل جيد جداً.

نمنا هذه الليلة في دمشق في فندق علام الذي يقع في حي القصاع، يقابله تماماً محل واسع يبيع الفلافل، في الليل نزلت إلى هذا المحل واشتريت "ساندويشين"، وكنت مشتاقاً للفلافل بعد انقطاع ما يقرب عشر سنين، أكلت هانيلوري الفلافل لأول مرة في حياتها، فاعجبت بها كثيراً. في اليوم التالي دعانا أخي فيليب "أبو نزار"، لتناول الغداء، وسألها ماذا تحبين أن تأكلي؟ منتظراً منها ان تقول أحب السمك، أو افخاذ الضفادع أو الدجاج المشوي مثلا، وإذا بها تقول ... الفلافل. فضحك كثيراً ، وتوجهنا الى مطعم علي بابا، وقدموا لنا أكلا متنوعاً كالعادة طيب المذاق جيد النوعية. بعده توجهنا إلى حمص في حي المحطة، حيث بيتنا القديم، الذي خرجت منه قبل عشر سنوات.

في اليوم التالي تماما توجهت الى شعبة التجنيد، طالباً سوقي الى حلب، مدرسة المشاة في المسلمية، لأداء خدمة العلم الإلزامية، في الدورة التي تبدأ في السادس عشر من شهر كانون الأول

تفاجأت بقولهم بأن علي أولا أن أعادل شهادتي في الطب.

وهنا بدات معركة من أصعب المعارك الإدارية آلتي خضتها في حياتي.

-الفصل الرابع عشر-

ذهبت لوزارة الصحة في دمشق، وطالبت بمعادلة شهادتي في الطب. أحالوني إلى المديرية القانونية التي يرأسها رجل تبين لي فيما بعد بأنه طائفي ومعاد للشيوعية. فطالبني بالشهادة مترجمة الى العربية، وبشهادة الثانوية -بكالوريا- فقدمت له شهادة بكالوريا ألمانية، وفيها علامات جيدة، حصلت عليها قبل بدء دراستي في جامعة كارل ماركس في مدينة لايبزغ.فجاوبني هذهِ الشهادة لا قيمة لها، ولا تعادل قيمتها قيمة الحبر الذي كتبت به. عليك أن تكون حائزا على الشهادة الثانوية السورية والا لا نعترف بشهادتك هذه.

طلبت مقابلة وزير الصحة، ودخلت الى مكتبه، بعد موعد استغرق وقتا طويلا. وهو طبيب من مدينة دير الزور، رجل طيب ومنفتح، فعرضت الموقف الذي أنا فيه، وقرأ شهادتي الثانوية الألمانية، واعجب بنتائجي في الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والبيولوجيا، وغيرها من المواد، فاستدعى رئيس الدائرة القانونية، وقال له هذه شهادة ممتازة في العلوم، فلماذا لا تعترف بها.

فأجاب لأنها لا تحتوي على مادة الأدب العربي، ولا مادة التربية القومية والدينية، ولا على مادة التاريخ العربي. فسأله الوزير هل هناك نص قانوني واضح، يتطلب حصول طبيب سوري درس في الخارج، على شهادة الثانوية السورية، فأجاب لا يوجد نص صريح بذلك، لكن هناك عرف وتقليد، ولا يوجد في سوريا طبيب واحد غير حائز على شهادة البكالوريا السورية. فأجاب الوزير، اذا لا يوجد نص قانوني بذلك، فلماذا تكون ملكيا أكثر من الملك، ولكنه بقي على موقفه.

كان هذا الكلام في الشهر الأول من العام 1970.

كان لي صديق من آل فلوح الحورانية، تكلم معي وقال دعنا نذهب لوزارة الصحة، فنائب وزير الصحة الدكتور نظمي فلوح وشقيقه الدكتور ناظم موظف ذو نفوذ واسع، هم أبناء عمي، لعلهم يجدوا لك مخرجا مناسبا.

دخلنا على الدكتور نظمي، رجلا رقيقا وناعما ومهذبا جدا، وعرضت عليه المسألة، فقال لي إن كل الدلائل تشير الى كونهم لا يريدونك،فلماذا عدت أنت الى سوريا؟ قلت لخدمة شعبي وقضية الحرية والاشتراكية، تبسم وقال إذهب أنت وزوجتك الطبيبة الى ألمانيا الغربية، التي ستأخذكم بالأحضان، وبرواتب نحلم بها.

عدت إلى حمص وأنا بحالة خيبة أمل كبيرة.

لم يكن لدينا أي دخل مادي، ولهذا عكفنا على البقاء دوما في البيت،لم نذهب الى دار سينما أو مقهى، حتى أنني لم أتصل برفاقي وأصدقائي القدامى، لأنني عاجز عن عزيمتهم أو قبول عزائمهم.

كانت زوجتي تهتم بوالدي المريض والمقعد فيما بعد من جميع النواحي تنظيفا وتغسيلا، ومعالجة ألم بحقن إبر في الظهر، إلى إعداد الفطور والغداء والعشاء، إلى التحدث معه بشكل مستمر حتى لا يشعر بالوحدة،وكانت تستقبل زواره من العائلة والأقارب، وتقوم بواجبات الضيافة بكل كرم وأريحية.

لم يكن أحدا ينتظر من هذه الاجنبية كل هذا،ومع الوقت صاروا يسمونها بالقديسة هاني،اختصارا لهانيلوري.

سمع ابن عمتي المهندس مدحت أبو خاطر،وهو مساهم كبير ومدير شركة تعهدات للبناء والتعمير، بوضعي وإني عاطل عن العمل بسبب عدم معادلة شهادتي بالطب.فجاءني إلى البيت، وقال لي هل أنت مستعد للعمل عندنا بالشركة كممرض؟

قلت طبعا العمل شرف والبطالة ترف. فقال أحييك. كان يعمل عندنا في كمب يقع بالقرب من قرية الباردة في صحراء تدمر ممرض يسعف بعض إصابات العمل البسيطة، ويعالج المرضى من إصابات لسعات العقارب والحيايا الخ، وكان راتبه الشهري مع المنامة والطعام، يبلغ 260 ليرة سورية، وبما انك دكتوراً فنعطيك مبلغ 360 ليرة. فوافقت على

الفور. في اليوم الثاني صباحا حضرت سيارة وتوجهت بي إلى مكان الكمب، وكان في استقبالي هناك ابن عمتي الأخر، شقيق مدحت الاكبر سنا، حكمت أبو خاطر.

كانت شركتهم التي تسمى أبو خاطر. وأخرس. وعطية. تبني طريقا اسفلتيا يصل حمص مع منابع الفوسفات في خنيفيس.

وفي الكمب المذكور بنيت غرف من البلوكات العارية، مع أسطح من الاترنيت السامة، وهناك مرآب او كراج كبير لتصليح الآليات الكبيرة مثل التركس والبغر والشاحنات الخاصة بعمليات البناء. وكان هناك ايضا مطبخا كبيرا جدا مع صالة طعام واسعة.كان الطعام جيدا ومتنوعا، ورئيس الطباخين من حمص من ال عبارة، كان صاحب مطعم ديك الجن على العاصي.يصل عدد سكان الكمب إلى 280 شخصا من مهندسين مدنيين، وسائقي آليات ضخمة وعمال اسمنت الخ.

تعرفت بسرعة على كل العاملين هناك بسرعة مذهلة، كل باسمه، وحضوري كل الأمسيات الموسيقيّة والغنائية المتقنة. وتوطدت بيني وبين العديد من العاملين هناك من عمال وفنيين ومهندسين، أواصر صداقة استمرت لسنين طويلة، اذ كان أيضا عاملا مساعدا في ذلك كونهم على الأغلب من مدينة حمص ومن أوساط يسارية.

نهار كل يوم خميس، كانت سيارات تنقلنا الى مدينة حمص في عطلة نهاية الأسبوع وتعود بنا صباح الجمعة إلى العمل. كنت أطمئن على أوضاع البيت وأسمع أخباره، وكانت زوجتي رغم هذه الظروف الصعبة، تبدي ارتياحها وسعادتها بخدمة الوالد وجو العائلة. شقيقي لبيب من سكان البيت أيضا، وعليه تقع مسؤوليات شراء الأطعمة والدواء وبقية الاحتياجية المنزلية، وكان يتقن الطبخ والتذوق بدرجة عالية.

وكانت زوجتي تساعده، وتتعلم منه، وبقيت طوال حياتها تطبخ لنا، أولادي وأنا، ولضيفونا الكثر أطيب الصحون من الأكل العربي، وكانت لا تتقن سواه.

في العودة الى كامب الباردة،عملي لم يكن مرهقا على الاطلاق، ويسمح وقتي بالتعرف على حياة الناس والعمال منهم على وجه الخصوص.كنت مندهشا من نفسي كيف استطعت أن أتخطى صعوبات الانتقال من أجواء برلين الحضارية وشروط الحياة المريحة، الى العيش في الصحراء القاحلة وظروف حياتها البدائية الخشنة.

الباردة قرية صغيرة جدا، وعدد سكانها ضئيل ومتنوع، تنوعا غريب جدا ملفت للنظر.

كان هناك قصرا صغيرا ودار ضيافة، يسكن فيه أحيانا الأمير نايف الشعلان، وبالقرب جدآ من القصر، يقع ضريح والده الامير نواف الشعلان، ابن الأمير نوري الشعلان، الذي شارك بالثورة العربية الكبرى الذي أعلنها الشريف حسين بن علي، شريف مكة المكرمة، ورافق مقاتلا على رأس فرسان عشيرة الرولة، الأمير فيصل والأمير علي والأمير عبدالله في شهر حزيران من العام 1916، وصل الجيش العربي المنطلق من مكة،بقيادة الأمير فيصل ولورنس، ضابط المخابرات البريطانية الى دمشق بشهر تشرين الثاني من نفس العام.

اشترى الأمير نوري الشعلان دارا واسعة لا تزال موجودة الى الآن في حي الشعلان الدمشقي ،الذي أخذ اسمه من دار الشعلان، التي لا تزال الى الآن أبوابها مفتوحة أمام كل الضيوف.

الباردة تقع بالقرب من سد مائي، روماني ضخم جدا، ولكنه مهدما ومهملا منذ مئات السنين، هذا السد كان يجمع مياه السيول من أماكن بعيدة،

أخذت تتشكل منذ مئات السنين طبقة من الطمي على سطح السد.استدعى الامير نايف، بستانيا من غوطة دمشق ليعمل عنده في زراعة الأشجار المثمرة،التي أتت أوكلها في وسط البادية. وكان هناك "موتور" يعمل على بئر من الماء يشرف عليه ويصونه ميكانيكي، وهناك حانوتا أو دكان لرجل مسيحي يبيع فيه حاجيات أهل القرية البسيطة وعلى رأسها الدخان والنبيذ. ويسكن في نفس القرية لاجئ أو دخيل على الأمير نايف من أغوات

المنطقة، قتل عائلة بكاملها، من باب الثائر، وهرب مستجيرا بالأمير، وهو يقيم في دار مع زوجته وابنه بدون أي عمل، ضيفا على الأمير، الذي يقدم له كل حاجياته من طعام وشراب ونبيذ وقهوة وسائل ودخان.

ومن هذه التشكيلة الانسانية الغريبة لا أنسى العدد الأكبر من السكان،من طبقة العبيد السود، ورثهم من أبيه وجده .هم لا يجيدون أي عمل إطلاقا، رجالهم يجيدون استعمال الأسلحة والقتال.

نشأت بيني وبين الأمير صداقة وارفة وظليلة، كان الأمير يجيد الانكليزية وقليل من الإسبانية، نظرا لامتلاكه في مربيا قصرا كبيرا،يزوره في اوقات متباعدة.كان يعمل بالسعودية مديرا لإحدى المؤسسات الهامة. الأمير يحب الشعر والأدب، قارئا نهما، مطلعا على دهاليز السياسة.

في مجلسه المسائي تدور فناجين القهوة المرة على مجالسيه وضيوفه، ويركع على الأرض في صالونه أعداد من العبيد رهن اشارته، يخاطبوه يا طويل العمر أو يا عمي.

في إحدى الأمسيات سألته عن سبب وجود عبيده، في عصر جديد، يرفض العبودية ويمقتها، فأجابني أنا الآن عبدهم، على إطعامهم مع عائلاتهم والباسهم ومصروف طبابتهم، وفي كل فترة أقول لهم على الملأ، أنتم أحرار وطلقاء والله معكم فاذهبوا إن شئتم. ولكن لا يفعلون ويبقون غصباً عني.

استمرت صداقتي مع أبو ممدوح الأمير نايف، وكان كثيرا ما يدعوني مع زوجتي حين كنا نعمل في مشفى المواساة في دمشق لزيارته في بيته الرحب في دمشق لتقديم هديته، المفضلة عندي،جلباب أبيض خيط في السعوديه،ألبسها دائما في صيف دمشق الحار.

كان ابن عمتي حكمت ابو خاطر يقيم معنا في الكمب بشكل دائم ليشرف على سير الأعمال على الأرض، وهو أيضا عضو مساهم ومؤسس للشركة،رجل صارم بالعمل، ذات هيبة مدهشة، رغم طيبة قلبه ومحبته للناس، وشهامته، وتواضعه، كان أيضا يحبني لأنني لم

أترفع عن العمل في ظروف قاسية، رغم إقامتي عشرة سنوات طويلة في ألمانيا. وكان كثيرا ما يطلب من ابو سهيل عبارة شيف الطباخين في الكمب، أن يعد لنا طاولة مميزة، نجلس حولها في المساء نرتع كؤوس المدام، ونسمع لبعض الأصوات الجميلة.

كنت أنتظر قدوم شهر حزيران بفارغ الصبر حتى أستطيع تقديم فحص البكالوريا السورية، التي تقدمت له بشكل خاص، أي ليس عن طريق مدرسة معينة، وطلبت ان تكون اللغة الألمانية هي اللغة الاجنبية مادة الفحص.

قبل موعد الفحص باسبوعين توقفت عن العمل ونزلت إلى البيت واشتريت كتب منهج البكالوريا، وعكفت على دراستها، وطلبت مساعدة صديقي ورفيقي الأستاذ حنا عبود، الذي أعطاني دروس يومية في قواعد اللغة العربية،وطريقة الكتابة بها، بعد انقطاع عشر سنوات، قضيتها في ألمانيا.

تقدمت على الفحص في مدرسة رزق سلوم في مدينة حمص،وكنت أدرس الليل بكامله منصبا على كتاب كل مادة اتقدم بها بدون نوم،وبعد الفحص،انام لثلاث ساعات، من ثم أسهر الليل بكامله منصبا على كتاب المادة التالية وهكذا دواليك.

أنهيت تقديم الفحوص وعدت إلى عملي في الكمب الصحراوي، وكنت وجلا وخائفا، من أن لا أنجح في الفحص، فأنال سخرية الناس، من أن طبيباً لم ينجح في فحص البكالوريا.

قبل يوم من إعلان نتائج الفحص على الجرائد،تصل النتائج الى مديرية التربية، وتذهب الناس إلى هناك للتعرف على نتائجها، من خلال آذن المديرية لقاء مبلغ بسيط من المال. ذهب أخي لبيب الى هناك، وأعطى اسمي للاذن، الذي عاد بيقول له إيدك على خمسين ليرة، قال أخي له لماذا تطلب هذا الرقم الضخم، -في تلك الأيام- فقال له أخوك ناجح وبدرجة تسمح له بدخول كلية الطب.

-الفصل الخامس عشر-

كانت غبطتي كبيرة بهذا النجاح، أي: حصولي على شهادة "البكالوريا" السورية، وزوال عقبة كأداء، أمام معادلة شهادتي في الطب. جاءت أعداد كبيرة من الأقارب والأصدقاء والرفاق للتهنئة، وفي مقدمتهم المرحوم المحامي الرفيق برهان دراق، عضو اللجنة المنطقية للحزب في حمص، فمنذ وصولي إلى حمص قادماً من ألمانيا قمت فوراً بالاتصال بمنظمة الحزب التي كنت أعرف أن غالبيتها تقف على مسافة من خط خالد بكداش وجناحه. فكلفت اللجنة المنطقية الرفيق برهان بالتواصل معي، كان يأتي لمنزلنا كل يوم جمعة قبل الظهر، فنقرأ سوية مشروع البرنامج السياسي فقرة فقرة، ويسجل ملاحظاتي عليها، التي كانت بالغالب إيجابية ومؤيدة. كان هذا الرفيق، برهان، من ألطف وأكرم، وأنبه، وأذكى، الرفاق الذين قابلتهم في حياتي الحزبية.

حصلت على وثيقة من إدارة التربية والتعليم تثبت نجاحي في الثانوية العامة، وتوجهت بها إلى وزارة الصحة في دمشق، ودخلت إلى مكتب رئيس الدائرة القانونية أريد تسليمه الوثيقة. وقفت أمام طاولته العريضة لدقائق وهو يقرأ في أوراقه، دون أن يرفع رأسه باتجاهي، وكأني غير موجود على الإطلاق، فقدت صبري، وقذفته بوابل من امتعاضي وتأكيدي أنني أشرف منه وأكثر وطنية وعلماً، وأنه طائفي ورجعي وضيع بالإضافة إلى بعض السباب، وخرجت فوراً.

التقيت صدفة في دمشق برجل كان يعمل معي في "كمب الصحراء" حيث كان بزيارة لعائلته، وسألني عن أحوالي، فحدثته بما جرى بيني وبين مدير الدائرة القانونية. فقال: "لا عليك"، وهدئ من روعك، أخي يعمل ضابطاً في سرايا الدفاع، وسوف يذهب معك غداً إلى وزارة الصحة، لمقابلة هذا الموظف الحقير. وفعلاً قدِم الضابط بلباسه العسكري وبسطاره الغليظ في اليوم التالي للقائي في الوزارة، ودخلنا دون طرق الباب، على ذات الرجل الذي كنت عنده البارحة، ولمّا شاهدنا وقف فوراً من على كرسيه، مرحباً مؤهلاً، مع تعابير الاحترام والتبجيل، وهو يقول: "تفضل دكتور جون بالجلوس.. تفضل سيادة الضابط وتكرم علي بأوامرك".

تعجبت من سلوك هذا الرجل الوضيع، لم أكن في حياتي كلِّها صادفت هكذا إنسان. المهم أنه تسلم الوثيقة شارحاً أن عملية معادلة شهادتي ستتم بأسرع وقت، بعد تقديم فحص التعادل، "كولوكيوم"، من قبل وزارة التعليم العالي، راجيا منّا شرب القهوة، وكأن شيئاً لم يحدث البارحة ودون خجل.

فحصُ التعادل كان يجري في بهو واسع في مشفى المواساة الجامعي، وفي اليوم المحدد للامتحان ذهبت رفقة الدكتور نايف بلّوز إلى هناك. كان يرأس اللجنة الفاحصة الاستاذ الدكتور مدني الخيمي، عميد كلية الطب. وفي البهو كان يقف عشرات من الأطباء المتقدمين للفحص، إلى جانب العشرات من معيدي الجامعة والأطباء المقيمين وبعض الطلبة، وكان الفحص شفهياً وعملياً.

جاء دوري مع ثلاثة أطباء لا أعرفهم، وبدأ الاستاذ "مدني" طرح أسئلته تباعاً على كل منا، وكانت أجوبتي تنال رضاه من خلال تعابير وجهه، وتوقف عندي مصعّداً بصعوبة الأسئلة، إلى أن توقف وسألني لماذا أنت تعرف كثيراً وبدقة؟

لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال، فأجبته أستاذنا أنت تعرف أن لا أسرار في العلم. وأنا اقرأ أخر البحوث الطبية التي تصدر في العالم بعد ثلاثة أيام مترجمةً إلى اللغة الألمانية.

ولكنه تابع يسألني إذن لماذا زملاؤك هؤلاء خريجي بلغاريا وهنغاريا والاتحاد السوفياتي... لا يعلمون ولا يعرفون مثلك؟ قلت: من يريد أن يعرف ويتعلم فالأمر منوط به.

انتهيت من الامتحان وقلت لصديقي نايف، هيا نذهب إلى المدينة، نشرب نخب النجاح، فما كان منه إلا أن أجابني، "صحيح إنك حمصي". هذا مدني الخيمي يمدحك أعظم مديح، وهذا لا يجري كثيراً على لسانه. انتظر قليلاً قبل أن نغادر.

وقفنا مع الجمهور إلى أن انتهى الفحص، وإذا بالاستاذ الخيمي يتوجه نحوي مصافحاً وقال لي: "أهنئك وسعدتُ أن أفحص طبيباً قديراً مثلك، وإذا احتجت لأي مساعدة في المستقبل فأنا سأقدم لك الدعم.

طبعاً، زوجتي الألمانية اجتازت فحص التعادل بنجاح والكلام باللغة العربية طبعاً. لكنها لم تطالَب ببكالوريا سورية، وأصبحنا نحن الاثنين طبيبين معترف بهما رسمياً. الآن، بعد مرور سنة وسبعة أشهر على وصولنا من ألمانيا، ما العمل؟ ونحن لا نملك قرشاً سورياً واحداً ، ولسنا على استعداد أن نستدين قرشاً من أحد. وهذا يعني عدم قدرتنا على فتح عيادة طبية تتطلب مالاً كثيراً.

لذلك قررنا العمل كأطباء مقيمين في المشفى الجامعي في مشفى المواساة في دمشق. حيث يقدم لنا سكن وطعام مجاني، ونكون بنفس الوقت متابعين العلوم الطبية بأعلى مستوى في سوريا.

سافرت إلى دمشق بغرض استطلاع إمكانية العمل في مشفى المواساة. وحصلت على موعد مع رئيس قسم التخدير والإنعاش، الاستاذ برهان بك العابد، ولقب "بيك" كان يطلق على أساتذة الطب في جامعة دمشق.

برهان بيك كان رجلاً في منتصف العمر، قصير القامة، مبتسم الوجه، لطيفاً، مؤدباً، ذكياً، صريحاً، صادقاً. بعد حديث مطول عن الماضي والحاضر والسير الذاتية لكلينا، بحت له برغبتي في العمل بقسم التخدير الذي كان يرأسه. فتبسم متعجباً وقال يبدو أنك رجل ذكي، ولذلك أقول لك صراحة، لا تتعب نفسك، ولا تضيع وقتك، فهذا شيء شبه مستحيل بل مستحيل،لأن من يدخل الى مشفى الجامعة، هم أبناء الأساتذة المؤهلين، أو الأطباء الحاصلين على أعلى الشهادات من أميركا أو بريطانيا أو من العائلات المرموقة الدمشقية عادة. فأين أنت من هذا كله؟أنا أصارحك محبة وودأ.

أنت خريج بلد اشتراكي، شيوعي على ما فهمت، مسيحي، حمصي، من عائلة مغمورة، لست أتاسياً ولا دوربياً ولا حتى سباعياً. فاترك هذا الطموح وإبحث عن طريق آخر. في الحقيقة كنت مرتاحاً لصراحته ووضوحه المطلق. ولكنني أجبته طالما الأمر هكذا، فانت شحذت همتي، وأنا رجل أحب مقارعة الصعاب من الأمور وتحدي المستحيلات. وودعته شاكراً.

تقدمت أنا وزوجتي بطلبين خطيين، إلى إدارة مشفى المواساة، وسلمته إلى الذاتية وأخذت رقم الطلب أصولاً، وتوجهت إلى مكتب الأستاذ مدني الخيمي، الذي أصبح وزيراً للصحة، وعرضت عليه الأمر، فوعدني بدعمي حيث يستطيع.

في زياراتي لدمشق كنت أحرص على لقائي بالسيدة المحترمة أم زياد إسرب، زوجة الصديق محمد إسرب، الذي تعرفت عليه وزوجته، في برلين. وكانت تصر كل يوم على قدومي لمنزلهما.

في منزل هذه العائلة الكريمة، كنت ألتقي بالنخبة السورية في تلك الفترة من وزراء ومديري دوائر وزوجاتهم، وزوجات كبار الضباط أيضاً يأتين للسهرات بمفردهم. وكنا نحي سهرات غناء وطرب.

هناك تعرفت على سيدة جميلة، صاحبة صوت غناءي متقن وجميل، ودودة، حميمية، وكانت بنفس الوقت منزعجة ومضطربة لأخبار تصلها عن زوجها، وهو من كبار وقادة الجيش السوري، بأنه على علاقة عاطفية مع إحدى الصبايا الجميلات، طالبة طب في الجامعه السورية، ويفكر بالزواج منها، وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد. وقد تقربت مني وأعجبت بي، وأصبحت تحرص على مجالستي كلما التقينا في السهرات، وهي تغني للسيدة أم كلثوم، وكانت تخصني بأغنية "أغداً القاك؟"، وتشير بعينيها الي عندما تصل الى مقاطع،...هذا الدنيا سماء أنت فيها القمر، هذه الدنيا عيون أنت فيها البصر الخ.

عندما سمعت بقصتي مع إدارة مشفى المواساة ووزارة التعليم العالي، وتعنتهم بعدم قبولي طبيبا عاملا هناك، تكلمت بالموضوع مع زوجها، الضابط الكبير وكان يشغل منصباً من أعلى المناصب في إدارة شؤون الضباط، وطلبت منه بالحاح أن يتدخل بالموضوع، فقام باليوم التالي بالإتصال هاتفياً مع المدير الاداري لمشفى المواساة، وقال له: عليك أنت وبقية أساتذة الطب تنفيذ أمري فوراً بتعيين الدكتور جون نسطة وزوجته الألمانية في نصاب طاقم أطباء المشفى وأغلق الهاتف.

بعد يومين ذهبت الى المشفى لمراجعة موضوع طلبي الخطي،فعلم مدير المشفى بوجودي هناك فأوعز لأحد معاونيه أن يقوم فوراً بإعلامي أن المدير يرغب بالحديث معي. ذهبت إلى مكتبه وأنا متوجس من هذه المقابلة، فاذا به يرحب بي ،على غير العادة، قائلا أنا طلبت من الدكتور برهان ومن الدكتور الأستاذ لطفي اللبابيدي أن يجروا معك محادثة، ما يشبه الامتحان، يكتشفوا فيها مقدراتك العلمية.وأنا بدوري سأعد طلباً الى رئاسة الجمهورية بإصدار مرسوم جمهوري بالتعاقد معك لمدة عام كامل، يمكن تمديده كل سنة. وسألني بفضول لماذا كل هذه الوساطات تدعمك، من وزير الصحة إلى كبار الضباط، قلت لا أعرف اسألهم أنت.

أجريت المقابلة مع الأستاذين برهان العابد ولطفي اللبابيدي، حيث وجها لي أسئلة فنية في علوم التخدير والانعاش، وكانا مرتاحين لأجوبتي.

توجهتُ إلى نقابة أطباء دمشق وسجلت نفسي وزوجتي أيضا في عداد أعضاء النقابة.

وزارة الداخلية طلبت من زوجتي أن تتقدم بامتحان باللغة العربية أمام فاحصين إثنين، كانا في غاية اللطف واللباقة والإنسانية، ونجحت طبعاً،لأنّ لغتَها كانت قد تحسنت كثيراً خلال وجودها بحمص.

لم يبقَ وقت طويل حتى بدأنا أنا وزوجتي بالعمل في مشفى المواساة، هي في قسم الأمراض الباطنية، وأنا في قسم التخدير الإنعاش.

كنت أول طبيب شيوعي يسمح له العمل في مشفى المواساة الجامعي، وكنت أول. خريج من دولةٍ اشتراكية أيضاً، باستثناء الدكتور نشأت الحمارنة الأردني الجنسية، الذي كان عضو احتياط في القيادة القومية، والذي تخصص في طب العيون وجراحتها في جمهورية ألمانيا الديموقراطية أيضا، وكانت تربطني به علاقة صداقة منذ ذلك الوقت. وكان رحمه الله كلما سمع مديحاً لي وعن قدراتي العلمية خلال عملي في مشفى المواساة، من بعض الزملاء، يرتاح ويعبر عن سروره، ليثبت للآخرين بأن دراسة الطب في ألمانيا على

مستوى عال، وفي هذا نوع من الدفاع عن النفس. وكانت زوجتي أيضا أول طبيبة أجنبية تعمل في هذا المشفى. كان راتبي 500 ليرة بالشهر وكذلك راتبها.

ومن المفيد أن أذكر أيضاً أن الدكتور سامي القباني ،جراح القلب، دخل معنا في نفس اليوم وكان راتبه أيضا 500 ليرة لاغير. كان شقيقي لبيب، بعد أن بدأنا العمل مباشرة، استحصل من البنك العقاري في حمص، على قرض بمبلغ عشرة آلاف ليرة سورية، على اسمي، كان بحاجة اليها. وكان علينا أن نسدد شهرياً مبلغ 500 ل.س.

وبهذا يبقى لنا 500 ل.س فقط.

استلمنا في المشفى غرفة واسعة نسبياً، فيها سريرين، وطاولة وعدد من الكراسي، وغرفة حمام واسعة أيضاً. كنت وزوجتي في غاية السعادة والرضى لوصولنا إلى ما وصلنا إليه بعد سنة وسبعة أشهر من المعاناة، والجهود المضنية والتعب.

-الفصل السادس عشر-

عملي اليومي في قسم العمليات الجراحية، وهو عبارة عن كوردور طويل يحتوي على عشرة غرف عمليات موزعة على الطرفين يميناً ويساراً، بالإضافة إلى غرفة استراحة واسعة، وعملي يستمر من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثانية ظهراً.

برهان بيك العابد كان يوزع أطباء التخدير على غرف العمليات، وكانت نسبة النساء لا بأس بها، أذكر منهن الطبيبة السيدة نظيرة عز الدين، وسيدة من آل طيفور، والسيدة فريال المالح.

برهان بيك قال لي في أول يوم عمل: فعلتها مو هيك؟ دخلتَ إلى المشفى رغم قولي لك بأن الأمر مستحيل بالنسبة لك، لكنني سعيد بانتصارك هذا.

من خلال نقاشاتي في غرفة الاستراحة، تبين لجميع الزملاء بأنني شيوعي العقيدة، وصار اسمي الطبيب الأحمر، ويدعوني بذلك الاسم.

كان رئيس قسم الجراحة العامة في تلك الأيام طبيب يدعى مظهر بيك المهايني. رجل يتسيّد المكان كالديك المنفوش الريش، عالي الصوت، يأمر وينهى، مهاب، لا أحد مستعد لمخالفته.

دخلت مرة لغرفة عمليات لتخدير مريض مصاب بكسر في عظم الفخذ، ومظهر بيك كان الجراح. أجرى العملية وفي ختامها مباشرة كنت قد جعلت المريض صاحياً، وطلبت منه أن يقول شكراً للدكتور المهايني، وفعلاً قالها، فتعجب من هذا ولم يصدق أذنيه، وقال لي: كيف تفعل ذلك؟ المريض عندنا يبقى ساعات وأحيانا يوماً كاملاً قبل أن يصحو ويستطيع الكلام؟ قلت له التخدير الحديث يمكنه ذلك باستعمال أدوية جديدة، موجودة، ولكن لا يتقن أطباؤكم استعمالها.

خرج مظهر بيك من الغرفة وصاح بأعلى صوته منادياً زميله الجراح لطفي اللبابيدي: لطفي بيك لطفي بيك، هذا الطبيب الأحمر يصنع العجائب، في المستقبل سوف أعين أطباء من ألمانيا الشرقية.

وفي حادثة أخرى مع مظهر بيك، جرت أيضاً في غرفة العمليات، وكان يساعده طبيب لطيف جداً، التفت إليّ وقال جان بيك، المريض ينزف في إشارة منه أن أتدبر الأمر، وأطلب من الممرضة إحضار أكياس دم لأنقلها للمريض، وهذا طبعاً من مهمات طبيب التخدير. التفتُّ لهذا الطبيب، ومظهر بيك يسمع، قائلاً ماذا قلت؟ جان بيك؟ ما هذه الإهانة؟ نادني باسمي، أو بدكتور. هل تعرف ماذا تعني كلمة بيك. إنها رتبة عسكرية في الجيش الإنكشاري التركي، وتعني قائد المائة، صمت برهان المهايني، ولم يعلق بكلمة واحدة، مع تعجب الجميع الموجودون في الغرفة من أطباء وممرضين وممرضات.

من وقتها صار اسم مظهر بيك، قائد المية. جاء قائد المية، وذهب قائد المية. وهكذا جعلت من كلمة بيك مسخرة واستهزاء بين كل من يعمل في غرف العمليات.

من خلال عملي تعرفت هناك على عدد كبير من الأطباء منهم محمد الشامي، جراح بطن بارع، مسيطر على ساحة عمله كامل السيطرة، والدكتور فيصل الصباغ، جراح الأمراض العصبية، صاحب النكتة اللاذعة، والملاحظة السريعة، واللسان الطويل، الذي لا يفلت من جلده أحد، رغم ضعف إمكانياته الطبية العملية.والدكتور عبد الحي عباس، جراح الأنف والأذن والحنجرة صاحب اليد الذهبية، شديدة المهارة. لم أتعرف بكامل حياتي المهنية، على جراح أفضل منه، أو يشبهه.

كان الزميل عبد الحي عباس، من أبناء حمص أيضا، إسلامي التوجه، متنور، مطلع على الفلسفة الأوروبية والألمانية خاصة، ولهذا كنا نتناقش سوية، وأثناء إجراء العمليات أحيانا، بأمور العالم ومصائر البشرية ومستقبلها القريب والبعيد. ونشأت بيننا علاقة صداقة متينة. وهو يعيش الآن في الولايات المتحدة الأميركية، وكتب منذ فترة قصيرة مقالا هاماً، فيه زهد بالعالم المادي وثرواته الزائلة، يحاول فيه أيضا أن يثبت وجود الله، ومن خلال عرض وجهات نظر اهم الفلاسفة والمفكرين العالميين.

وهناك تعرفت أيضا عن قرب بالدكتور سامي القباني، جراح القلب والأوعية الدموية، الذي كان أيضا صاحب تأملات فلسفية وثقافة واسعة، ونشأت أيضا بيننا علاقة فكرية مميزة.

ومن بعدها علاقة طبية متينة، حين عرف بأنني طبيب تخدير وعناية مشددة خريج برلين. صار يعتمد على كلياً حين يريد أن يقوم بعملية قلبية، طبعا ليست عملية قلب مفتوح، لان تجهيزات المشفى لا تسمح بذلك. من المؤسف أن أذكر وجود أجهزة متعددة حديثة للتخدير وللتنفس الاصطناعي، جاءت كهدايا من السويد، ولم يكن أحداً من أطباء المشفى يعرف أن يشغلها أو يستعملها. ولم يكن هناك استعمال لغرفة العناية المشددة الواسعة قبل مجيئي.

أخبرت الدكتور سامي بوجود هذه الأجهزة وبوجود غرفة العناية المشددة. فصار يسألني إن كنت موجود في العمل في اليوم الفلاني، لأنه يرغب بإجراء عملية قلبية، وإلا سيؤجلها. كان يعلم بأن مريضه سيموت إذا لم يتوفر طبيب يرعاه في العناية المشددة. لم يكن أحد من أطباء التخدير مستعد للبقاء بعد الساعة الثانية ظهرا في المشفى، ورعاية مريض بعد العملية، ولأنهم أيضا لم يكونوا يعرفون استعمال المنفسة، وأساليب العمل الطبي في العناية المشددة.

المشكلة الأساسية كانت ولا تزال تتلخص بعدم وجود قانون تفرغ للأطباء يمنعهم من العمل في عيادات خاصة، والعمل في المشافي الخاصة، بعد الدوام الرسمي في المشافي التابعة لوزارة الصحة أو وزارة التعليم العالي.

لذلك كنت ترى وصول أغلب المختصين من الأطباء يصلون إلى المشفى الرسمي حوالي الساعة العاشرة وينصرفون مسرعين حوالي الواحدة ظهراً، إلى معالجة مرضاهم في عياداتهم الخاصة أو إلى المشافي الخاصة. المصالح الخاصة هي التي تفرض نفسها على سلوك البشر، متجاوزة دروس الأخلاق والوعظ الديني.

كانت زوجتي تعمل في قسم الأمراض الباطنية، وتعالج مرضاها من الصباح الباكر حتى المساء، ماعدا فرصة غداء قصيرة، وكانت تكتب القصص المرضية وخطط التشخيص والعلاج إلخ. باللغة العربية الفصحى، مستدعية تعجب الممرضين والممرضات، وإعجابهم بانكبابها على العمل.

بعد فترة جاءني أكثر من زميل لها، يطلبون مني الحديث معها بأن العمل في سوريا غير العمل في ألمانيا، وأنها بانكبابها على العمل لساعات طويلة يسبب حرجا بالنسبةِ لهم.

في مشفى المواساة هذا تعرفت أيضا على عدد من الأطباء المتدربين، وكنت من مندهشاً من مستواهم العلمي والعملي المتقدم جداً، والذي يتفوق على مستوى الأطباء الألمان علمياً وعملياً، ونشأت بيني وبين بعضهم علاقة صداقة مستمرة إلى يومنا هذا، أذكر هنا على سبيل المثال وليس الحصر، الدكتور فيصل العلوني، الذي أصبح مديراً لإدارة الصحة في محافظة الرقة، وأيضا سفيراً في دولة تونس لسنوات طويلة.

كان فيصل إنسانا رقيقاً، هادئاً، لطيفاً، متأنياً، عطوفاً، يحترم الآخرين من الجياد خلقاً وعملاً، كان يبدو عليه صفة التأمل، وتبين لي بانه مهتم بقضايا الفلسفة والفكر إسلامي التوجه معجب بأفكار مالك بن نبي، ومن هنا كانت تجري بيننا مناقشات وحوارات مستمرة، امتدت صداقتنا الرجولية إلى زوجتي أيضاً، التي كانت تحترمه وتقدره. لابل إن صداقتنا استطالت وتوارثت إلى أولادنا، فابنتي منى وابنه عمر أصبحا صديقين حميمين، وخصوصاً لان منى ساعدته بالقدوم إلى ألمانيا والاهتمام به وبصديقه ورد الجعبري، على كل الأصعدة.

ولا أنسى أيضاً علاقة الصداقة آلتي نشأت بيني وبين طبيب لامع آخر يدعى موسى الكردي، الذي كان يعمل، بقصد الاختصاص، في قسم التوليد وأمراض النساء في جامعة دمشق. كان شاباً حيويا، نشطا، ذكيا بارعا، جراحا لم أر في حياتي المهنية كلها، مثله. في عمليات القيصرية أن يفتح بطن المريضة، ويخرج الطفل الوليد بأقل من ثمان دقائق. وينهي العملية خلال 20 دقيقة. أصبح أيضا أستاذاً في جامعة كمبردج البريطانية فيما بعد، ويعالج مريضاته في عيادة خاصة في لندن أيضا. ويعمل الآن في دبي، بعد أن مارس الطب في دمشق قبل انتفاضة الشعب السوري البطولية. وذاع صيته في أنحاء سوريا كلها.

وكان أيضا إنسانا نبيلا، كريم اليد، وفياً، محباً، شهماً.

مضى عام على عملنا في مشفى المواساة، وانتهت مدة العقد، التي لا تمدد إلّا بمرسوم من رئيس الجمهورية. تقدمت بطلب التمديد مع موافقة إدارة المشفى. ومضى شهران ولم يصدر المرسوم، ونحن نعمل بدون راتب. طلبت مقابلة مع وزير التعليم العالي، الدكتور شاكر الفحام، الذي كان يعمل سابقاً أستاذاً للأدب العربي في مدينة حمص. شرحت وضعي وإنني أنتظر منذ شهرين صدور المرسوم، وراتبي متوقف، أجابني: إنه يتفهم وضعي، ولكن الرئيس مشغول بأمور أخرى أكثر أهمية، وأنه سيحاول قدر جهده، تسريع العملية. انتظرت شهراً آخراً، ثم ذهبت إلى الوزارة، وكانت تقع بحي الروضة، وطلبت مقابلته، وكنت مشحوناً غضباً واستياءاً، لأنني استنزفت كل إمكانياتي المادية. وأنا رجل لم استدن بحياتي وإلى الآن قرشا واحداً من أحد.

خاطبت الوزير فحّام بلهجة ونبرة عالية، وقلت ما هذه الدولة التي يعمل فيها طبيب موظف بدون راتب لمدة ثلاثة أشهر. وأنت وزير مهمل غير مهتم بأحد، ولا يهمك مصائر البشر، تتمتع بالرخاء والبحبوحة وراحة البال، على حسابي وحساب غيري من خدام الدولة. لم أتح له وقتاً للإجابة، مسترسلا بهجومي الشخصي عليه، عندها ضغط على زر، فدخل الحاجب وطلب منه الوزير مخاطبة شرطي الوزارة بالقدوم فوراً، الذي حضر مسرعاً. وطلب منه الوزير اعتقالي فوراً ووضع القيد المعدني في معصمي.

قلت له صارخاً: لي الفخر أن اعتقل بدولة البعث، لأنني أطالب بحقوقي المهضومة.

وقال الوزير للشرطي: اعتقله بتهمة الإساءة للوزير خلال عمله. خلال هبوطنا على الدرج، شاهدني مقيداً الأديب المثقف اليساري شحادة الخوري، الذي قام على الفور بالاتصال مع رفاقي الحزبيين، وبأهلي في حمص وأعلمهم بأمر اعتقالي. قام ابن عمتي البعثي، صديق الوزير شاكر الفحام، ورفيقه، رفعت أبو خاطر، بالاتصال به معاتباً بصدد اعتقالي وبأنني ابن خاله. المهم بعد عدة اتصالات معه، أمر بالإفراج عني.

-الفصل السابع عشر-

كانت غرفتنا في المساء تغص بالضيوف من كل حدب وصوب على صغرها وقلة مقاعدها وعلى رأسهم صديقي الدكتور سعد النابلسي رحمه الله وبعض معارفه وضيوفه من مدينة جبلة واللاذقية اللذين لم أكن اعرفهم، ومنهم رئيس بلدية جبلة عبد الحفيظ نجيب وغسان إسماعيل، أمين سر محافظة اللاذقية. اللذان أصبحا من أعز وأمتن صديقين لي.

الأستاذ عبد الحفيظ نجيب شخصية متميزة تجمع بين البساطة وسمو الأخلاق والقيم الإنسانية، مع حب النكتة والمواظبة على الضحك وميل دائم لصنع المقالب، بالحاضرين، رجل مسيس بأفكار البعث الثورية المعادية للرجعية وبقايا الإقطاع ولممثلين اليمين في الجيش والطاقم الحزبي. وشغل لفترة غير قصيرة منصب قيادة فرع حزب البعث العربي الاشتراكي في مدينة جبلة وتوابعها من الأرياف في الساحل والجبل.

وعلى علاقة صداقة بالضابط حافظ الأسد الذي تمنى عليه أن يلقي كلمة رثاء على قبر والده المتوفي. وبعد انقلاب السادس عشر من تشرين الثاني عام 1970وتولي حافظ الأسد رئاسة البلاد طلب من عبد الحفيظ أن يقف إلى جانبه في السلطة الجديدة أو تقديم استقالته من رئاسة بلدية جبلة. ففضل الاستقالة وبالتالي البطالة عن العمل واضطر لان يفتح محلا لبيع اللوازم الزراعية من متورات ضخ المياه والسماد وغيرها وتوابعها. لأنه كان منحازا ووفيا لقيادة صلاح جديد.

عبد الحفيظ بقي طوال حياته أعزبا يسكن مع شقيقتيه الغير متزوجتين سكينة وبدرية في بيت من شقتين، واحدة منهما يسكنه هو والآخرى مخصصة للشقيقتين المتصلتين مع بعضهما بواسطة بابين، وهو من يقوم بمصاريفهن. وكنت أقوم مع زوجتي التي كان يجلها بتلبية دعوات زيارته المتكررة.

أما غسان إسماعيل الذي كان بالإضافة لعمله يدرس الفلسفة في دمشق جامعه دمشق ومن طلاب صديقي المفضل الدكتور نايف بلوز، فكان يتردد كثيرا على دمشق ويزورنا زوجتي وأنافي غرفتنا في مشفى المواساة.

غسان إسماعيل رجل مثقف، يساري، رقيق، خجول فائق التهذيب كريم إلى أبعد حدود الكرم.

استمرت صداقتي مع الاثنين إلى عقود طويلة حتى وفاتهما المبكرة وكنت في زياراتي إلى الوطن بعد سفري إلى المانيا مرة أخرى أزورهما على الدوام.

لما وصلت إلى دمشق للعمل في مشفى المواساة وكان ذلك في شهر حزيران من عام 1970جرت دعوتي من قبل الحزب للانتظام في المكتب الاقتصادي المركزي وأنا الطبيب، والسبب في ذلك يعود إلى أنني أثناء دراستي في لابزيغ قمت بإعداد دراسة عن الجمعيات التعاونية الزراعية، والقيتها في محاضرة، بقصد التثقيف الحزبي، وجرى طبعها على الآلة الكاتبة، وإرسالها إلى الحزب في دمشق. وكان هذا المكتب يضم رفاق مختصين بالاقتصاد والصناعة أذكر منهم الدكتور داوود حيدو، والدكتور طه بالي، والدكتور مفيد حلمي، والمهندس خير الدين جبريني وغيرهم.بعد فترة قصيرة، بعد أن أعلنت عن عدم صلاحيتي لهذه المهمات الإقتصادية، من دراسات ومتابعات للأحوال الاقتصادية، جرى القرار بنقلي إلى العاملين بالقطاع الصحي. الرفيق الذي اتصل بي، يدعى ميشيل ديب أبو ابراهيم.يعمل وكيل لشركات أدوية، أجنبية ووطنية ويقوم بزيارة الأطباء في عيادتهم بغرض الترويج لأدوية هذه الشركات وعلى رأسها شركة لألمانيا الديموقراطية من نوعية جيدة بأسعار زهيدة.

أبو إبراهيم، نقابي بارز، عضو لجنة الحزب المنطقية في دمشق ترجع أصوله إلى مدينة قطنا رفيق جماهيري محبوب في حيه القصاع، خدوم، دائم الحركة والنشاط طيب القلب كريم اليد، شهم. متزوج من رفيقة من اللاذقية.

طلبت منه مرة أن يساعدني في حل لمشكلة غسيل حوائجنا المتسخة لأن غرفتنا في المشفى لم تكن تحتوي على غسالة ثياب كهربائيه، فما كان منه إلا أن قال بيتي مع غسالتي تحت تصرفكم يوم كل جمعة، لأني والعائلة نكون في قطنا لزيارة الأهل والأقارب هناك. وبالفعل

كنت وزوجتي نذهب كل يوم جمعة مع غسيلنا، إلى بيته ونستعمل غسالته ونأكل من طعام لذيذ معد لنا.

خلال فترة عملي في مشفى المواساة استدعيت لخدمة العلم الإجبارية، والتحقت بمدرسة المشاة العسكرية في المسلمية في حلب.

لم يمضي أسبوع حتى أفاجأ بوصول أمر عسكري بتوقيع وزير الدفاع بتسريحي وضرورة التحاقي بعملي في مشفى المواساة بطلب من وزير التعليم العالي. وكان من يقف وراء العملية كلها الدكتور سامي القباني الذي كان يثق بي ثقة عمياء. وتكررت العملية مرة ثانية...استدعاء والتحاق بمدرسة المشاة ثم تسريح بأمر من وزير الدفاع بطلب من وزير التعليم العالي في العام الذي تلاه. وسلمت ثيابي المدنية واستلمت الألبسة العسكرية وتوجهت إلى مهجع الأطباء لأن الدورة تضم مهندسين وأطباء وكان سريري مجاور لسرير الدكتور إياد الشطي الذي كنا نعرفه من خلال عملنا في مشفى المواساة ويشغل فيه رئيس قسم التشريح المرضي وتحليل الأنسجة.

بعد مرور عامين على تواجدي في مستشفى المواساة، تقدمت بطلب إلى الأستاذ برهان العابد بغرض استعدادي لتقديم فحص الامتحان للحصول على شهادة الاختصاص السورية، في أقرب وقت ممكن.

تم تحديد موعد سريع للامتحان، أمام لجنة مؤلفة منه، ممثلاً لوزارة التعليم العالي، ومن رئيس قسم التخدير والإنعاش، في مشفى المجتهد، ممثلاً لوزارة الصحة. اجتزت الامتحان بنجاح طبعا، الذي كان شكلياً، بما أن الفاحصان يعرفان مقدرتي النظرية والعملية.

خلال عملنا في مشفى المواساة زوجتي وأنا، تبين أننا سنصبح والدين لمولود قادم، وفي 10.12.1971 أنجبت زوجتي في حمص فتاة جميلة حيوية أسميتُها رندة، وعدتُ بعدها فوراً إلى دمشق للالتحاق بعملي، على أمل العودة في نهاية الأسبوع التالي. وعندما عدت إلى بيتنا في حمص سألت: أين رندة؟ قالت زوجتي: ما في رندة، فظننت للحظة أنها توفيت،

وبدأت بالبكاء، فهدأت من روعي وقالت: إنها فضّلت اسم منى على رندة، ولما سألتها لماذا اخترت هذا الاسم؟ قالت: لأنني معجبة بالممثلة القديرة منى واصف، وافقت فوراً.

بعد فترة إجازة الولادة لمدة ثلاثة أشهر عادت زوجتي للعمل، ومعها الرضيعة منى، التي ملأت حياتنا فرحاً.

ولكن بقي السؤال كيف تستطيع زوجتي الموائمة بين متطلبات العمل وواجباته، وبين رعاية الطفلة الرضيعة وحاجاتها؟! فاستعنت بالرفيق "أبو إبراهيم"، فأتانا بشابة مستعدة للبقاء إلى جانب منى من الصباح حتى الثانية ظهرا، لقاء أجر بسيط.

نمَتْ منى بسرعة وبادرت بالمشي في الشهر العاشر من عمرها، وكثيرا ما كانت تخرج من غرفتنا إلى أجنحة المشفى، ونركض للبحث عنها.

قررت العودة إلى حمص للعمل هناك كطبيب تخدير، والمدينة كانت في تلك الفترة خالية من أطباء التخدير، وتشّجعت على هذه الخطوة، بعد أن أخبرني ابن عمتي المرحوم مدحت أبو خاطر، أنه كان في زيارة لمحافظ حمص، وأنه أصدر قراراً يمنع أصحاب المشافي الخاصة، ومدراء المشافي العامة، دفع أجور التخدير، إلا بوجود وإشراف طبيب تخدير مختص.

قمت بزيارة كل مشافي المدينة ودخلت إلى غرف العمليات فيها، فوجدت أجهزة تخدير قديمة في حالة يرثى لها، ومعدات أكثر بؤساً.

في هذه الأثناء جرى تواصل بيني وبين المستشفى الإيطالي بحلب، بواسطة السيد "حكمت أبو خاطر" وهو ابن عمتي أيضاً، رجلٌ محبٌ غيورٌ أطال الله عمرَه. هذا المشفى كان يبحث عن طبيب تخدير وإنعاش. زرته ووجدت به غايتي. وبدأت بالعمل هناك في شهر آذار من العام 1973، وكنت أسكن في البداية بفندق في شارع بارون وسط المدينة، وأبحث عن بيت استأجره لسكن فيه عائلتي الصغيرة. عثرنا على بيت مفروش أنيق بجانب مشفى الكلمة في حي السبيل، وانتقلت العائلة إليه.

ثم تعرفت على طبيب التوليد المشهور الدكتور إسكندر قسيس، ويملك مشفى صغيراً باسمه، وأصبح لا يقوم بأي عمل جراحي، ولو كان بسيطاً، إلاّ ويستدعيني.

تحسنت أوضاعي المادية كثيراً، بعد سنوات عسرٍ طِوال.

صلتي الحزبية في حلب كانت عن طريق رفيقٍ من خيرة من تعرفت عليهم في حياتي الحزبية الطويلة، ثقافة، ورقة، وتواضعا ومحبة، وتهذيباً، أستاذ الجامعة الدكتور محمد أبو بكر عضو اللجنة المنطقية لتنظيم المكتب السياسي، بعد حصول انشقاق خالد بكداش ويوسف فيصل عن الحزب. كانت صلتي فردية فقط معه.

في حلب، في مشفى الدكتور إسكندر قسيس، وُلد ابني الوحيد فايز. واكتملت سعادتنا.

لكن هذا الوضع المريحً لم يدم طويلا حيث جاءت حرب تشرين عام 1973، وانقطعت الكهرباء، وشحت المياه.

ثم استدعيتُ لخدمة العلم وبدأت مرحلةٌ جديدة من حياتي.

-الفصل الثامن عشر-

دخلت الى مدرسة المشاة في المسلمية في حلب، للمرة الثالثة، بعد عمليتين من التسريح من قبل وزير الدفاع، والالتحاق بمشفى المواساة الجامعي.لم أكن أعرف من رفاقي الأطباء في هذه الدورة احداً.

كان عدد الأطباء ثلاثة، وعدد المهندسين نفسه.

طلب مني الالتحاق بمهجع لبعض الأطباء بسعة ستين سريرا معدنيا ضيقا.

كان بجانبي مباشرة على جهة اليسار، طبيب أسنان شاب في الثالثة والعشرين من العمر يدعى مازن بدر الدين علوش، طويل القامة جميل المحيا، أبيض اللون بل شاهق البياض، وعيون سوداء ،ينمان عن ذكاء واضح. كنت وأنا في الرابعة والثلاثين من العمر، بالنسبة له شيخا مهترئاً.

هذا المازن، الذي حاول بالبدء أن يسخر مني، بإساءات محرجة وتعليقات متذاكية، شاء القدر أن نصبح على علاقة متينة ولصيقة امتدت إلى يومنا هذا.

مازن كان خلال دراسته في جامعة دمشق، قريب من حركة فتح الفلسطينية،ودخل من خلالها في دورات تدريب عسكرية، رجل مؤمن بالله والآخرة. كنا نجلس لساعات طويلة في حوار ونقاش لا ينقطع، حاولت فيها أن أعرض له إيماني بالفكر الماركسي وبالاشتراكية العلمية، التي لم يسمع بها عن قرب سابقاً، مع الأيام، أصبح يصغي أكثر ويطرح أسئلة بغاية الاستفادة ،والتوغل في المعرفة. وعرفته أيضاً بأهداف حزبنا الشيوعي (المكتب السياسي)، وببرنامجه السياسي، الذي راق له كثيراً وأصبح من أنصاره.

وفي نفس المهجع تعرفنا مازن وأنا على شاب، طبيب مختص بالجراحة العصبية، خريج غلاسكو في بريطانيا، يدعى مهدي قسوات من دمشق. رجل أشقر الشعر، أزرق العينين، صاحب نظرة سريعة وثاقبة بنفس الوقت، معتدل القامة، يتمتع بحيوية فائقة، وبحركات سريعة، لطيف، مهذب، رقيق، قريب من القلب، مهضوم، سريع الملاحظة. في أحاديثنا معه تبين لنا أنه رجل مصاب بنوع من انفصام الشخصية، ما إن يبدأ الحديث عن الوضع

السياسي، حتى يتحول من رجل عادي ومتوازن، الى رجل مصاب بداء العظمة المفرطة، وادعاء الزعامة على الشعب السوري بأكمله... وكان يقول أنا الدمشقي، صاحب البلد، وليس "الريفي الجاهل" الدخيل على دمشق.

وما إن ينتقل الحديث الى الجانب العملي اليومي حتى يعود الى طبيعته الاولى، براغماتي، عقلاني، يقدم خدماته ويعرضها علينا بكل أريحية. كان يرخي لحية على الذقن فقط، سكسوكة بالدارج. ومع الوقت أصبح اسمه بناء على اقتراحي، أبو سكسوكة. وبنفس الوقت تعرفنا على طبيب دمشقي حامل شهادة البورد الأمريكية، في اختصاص الأمراض الصدرية عند الأطفال، وهو إختصاص نادر جدا، ويدعى لؤي نصري، من سكان شارع أبو رمانة في العاصمة.

كان لؤي شاب طويل القامة، متين البنيان، طليق اللسان عند الحاجة، عميق المعرفة بالعلوم الطبية، مرح في وسط يعرفه، جاد في غير هذا الوسط.

كنا نستيقظ صباحا في الخامسة، ونغتسل ونلبس ثيابنا خلال عشرة دقائق لا غير، ثم ننضم الى صف التدريب، حيث يؤخذ التفقد،ونتوجه بعدها إلى رياضة الصباح، بعد تسجيل المرض، من قبل المرضى، ومن بعدها نذهب الى قاعات الفطور المقتصد، ثم الى قاعات المحاضرات، ومن بعدها الى التدريب العملي بأشكاله الأولى من المسير بالصف الى الركض، الى القفز فوق الخنادق الخ.

في احدى الصباحات جاء إلينا في الصف الصباحي مدير المدرسة وكان برتبة عقيد، وسأل عن أمهر الاطباء في هذه الدورة، فأجاب الضابط الملازم بأنه حسب معلوماته، هم ثلاثة، محمد مهدي قسوات، ولؤي نصري، وجون نسطة،فتوجه بنا الى مكتبه،وقال والدتي مصابة بإصابة فجائية في رأسها، وأطبائها لا يعرفون إذا كان سبب الاصابة نزيف في أحد الشرايين، أم جلطة دموية. وأنا اريد أن تذهبوا معي الآن إلى منزلي في حلب وتفحصوها، وتشخصوا الإصابة. أطباءها لا يستطيعون العلاج الا بعد التشخيص.

توجهنا نحن الثلاثة بسيارته وبرفقته، وفي الطريق رجوته أن نتوقف عند أول صيدلية كبيرة، طلبت من الصيدلاني إبرة بزل قطني رفيعة، وتابعنا السفر الى المنزل،قام الدكتور مهدي، وهو جراح عصبية، بفحصها بشكل دقيق، ثم قمت أنا بإجلاسها على حافة السرير وعقمت لها ظهرها، وأدخلت الابرة بين الفقرات القطنية إلى القناة النخاعية وحصلت على السائل الدماغي، وكان ملوثا بالدم. فقلنا للعقيد،تشخيصنا الواضح هو نزف دموي،يقوم بالضغط على بعض المراكز العصبية في الدماغ، ويسبب بعض الفالج في الأطراف والوجه الخ.

كان سرور العقيد واضحا على محياه، فتقدم نحونا بالشكر الجزيل وقال أنا أمنحكم إجازة مفتوحة بكامل الدورة، تحضرون متى تشاؤون، وتتغيبون، بدون محاسبة، متى ترغبون.

وبالفعل أصبحت أنام، عند عائلتي في حلب في أكثر ليالي الدورة،ومدتها الاجمالية ثلاثة أشهر، داومت فيها دواما كاملا مدة عشرين يوما فقط.

تعرفنا في الدورة على طبيب، أخصائي في الأمراض الهضمية، خريج فرنسا، اسمه موسى حنا، أصبح من عداد شلتنا أيضا. وأصبح الدكتور مهدي قسوات يدعونا لتأسيس حركة سياسية بزعامته، وسميناها حركة التعاضد الوطني، برئاسة العضض الاعظم محمد مهدي قسوات، والعضض الأعظم المساعد الأيمن لؤي نصري، ومساعد العضض الاعظم الأيسر جون نسطه، باعتباره يساريا، ولؤي الدمشقي باعتباره يمينيا، ومجلس قيادي الأعضاض المؤسسين.

وأعد لنا الدفتر الفلسفي للحركة، ونظاماً داخليا ايضا.

فيه تراتب العضوية على الشكل التالي، عضض، ومستعضض، أي مرشح للعضوية، وبصاص، أي من بدأ يرى أو يسمع بالحركة ويرغب بمعلومات أوفر عنها.

كنت أنا الدينمو المحرك لهذه الحركة، التي بدأت بتوسيعها وضمت أسماء عديدة، أذكر منهم الدكتور محمد سعيد النابلسي، وشقيقه،العميد مصطفى، والعميد عبد الله، والصحفي

والكاتب نصر الدين البحرة، والمؤرخ محمد محفل ومصطفى شاكر، وفيما بعد الدكتور هشام سنان والكثير الكثير من الأعضاض، واصبحنا نعقد اجتماعات موسعة، يلقي فيها العضد الأعظم خطاباته المزلزلة، شارحا أهداف وفلسفة الحركة،المعارضة للنظام اللا شرعي وأنه هو من سينقذ الوطن بأفكاره الحديثة والمجددة لروح الأمة،وسط الضحك والمزاح، والاستمتاع بالجنون.

بعد إنتهاء الدورة العسكرية في مدرسة المشاة توجهنا نحن الأطباء إلى دمشق للمشاركة في دورة طبية عسكرية بإشراف رئاسة الخدمات الطبية في الجيش العربي السوري. وهناك بدأ الحديث عن الفرز المتوقع للأطباء على قطعات الجيش وعلى المستشفيات العسكرية في المدن.

كنت أرغب بفرزي إلى مستشفى حلب العسكري، حتى أستطيع متابعة عملي في المشفى الايطالي ومشفى الدكتور اسكندر قسيس في حلب. توسطت رجل الأعمال الكبير المتعهد المهندس مدحت أبو خاطر، ابن عمتي، رحمه الله، بأن يسعى لي بهذا المسعى. فتكلم مع مدير شؤون الضباط في الأركان العامة العميد ممدوح عبارة، طالبا منه فرزي إلى حلب، فوافق.

وبنفس الوقت سمع العقيد الدكتور مصطفى سلاخو،طيب الله ثراه، رئيس قسم التخدير في مستشفى المزة العسكري، عن وجود طبيب تخدير في هذه الدورة،فرغب بفرزي الى هناك، لأنه كان الطبيب المختص الوحيد في ذلك القسم، ويرغب بمساعدة أحد غيره. تكلم هو بدوره مع قيادة الجيش وقائد الخدمات الطبية العميد ماجد العظمة، الشخصية البارزة، وصاحب النفوذ القوي بالجيش. قام ممدوح عبارة بمناورة ذكية عندما فرزني الى احدى القطاعات المقاتلة على الجبهة، وطلب مني عدم الالتحاق، على أن يقوم بنقلي من هناك إلى مدينة حلب.

باءت مناورة العميد عبارة بالفشل وتم فرزي إلى مشفى 601 مشفى القاعدة في المزة بدمشق، وسط انزعاجي، وخيبة أمل ابن عمتي.

قبل التحاقي بالعمل في مشفى المزة العسكري في المزة، سافرت برفقة الدكتور مهدي قسوات، على متن سيارته البيجو، الى حلب، لنقل العائلة، مع حوائجنا الشخصية، الى مدينة حمص، بيت العائلة. ومن ثم تابعت معه إلى مدينة دمشق.

التحقت بالعمل في بداية شهر كانون أول عام 1973، أي بعد انتهاء الحرب وبداية حرب الاستنفار. استقبلني الدكتور العقيد الدكتور مصطفى سلاخو، بالترحاب، ورافقني للتعرف على غرف العمليات في قسم الجراحة العامة والجراحة العظمية، وهم أربعة غرف، ثم عقد اجتماع لطاقم العاملين في قسم التخدير، من الطبيب المجند أحمد كنامة، من مدينة دير الزور، والذي سوف يتسرح بعد أيام، ومن حوالي ثمانية ممرضي تخدير برتبة مساعد، ومساعد أول، يقومون عمليا بإجراء عمليات التخدير، ويستعينون وقت الحاجة بالطبيب المختص.

العقيد مصطفى سلاخو من قرية المليحة في غوطة دمشق، ويسكن فيها، اختص في بريطانيا وهو في مطلع الأربعين. رجل لطيف بل في غاية اللطف، مهذب، بعثي غير متعصب، مسلم غير ملتزم، صاحب نكتة، محبوب من قبل العاملين معه.

كنت أنام في هذه الفترة في فندق متواضع في شارع العابد فوق بار فريدي، الذي كان زواره غالبا من مثقفي دمشق وشعرائها، ونشأت بيني وبين صاحب الفندق أبو سفيان، بسرعة،علاقة مودة وصداقة، وأصبح يقدم لي خصومات سخية على أجور الغرفة، التي أقيم فيها، لقاء تنظيم دفاتر دخول الفندق، ومصاريفه، لأنه كان شبه أمي، أو هكذا يتظاهر، لأنه فوضوي وماجن.

بدأت بالبحث عن سكن أنقل إليه عائلتي إليه بدمشق، من مدينة حمص. يساعدني في ذلك رفيقي العزيز أبو إبراهيم، ميخائيل ديب، الذي عثر على بيت يقع في حي القصاع، امتداد شارع بغداد، بعد المشفى الفرنسي بمئتي متر، مقابل كنيسة الصليب.

بيت متواضع الفرش إلى أبعد الحدود الممكنة، مؤلف من ثلاثة غرف مع غرفة جلوس وحمام ومطبخ صغيران، لا تصل الى أغلب غرفه الشمس، بعض حيطانه مصابة بالرطوبة. وأجرته 320 ليرة سورية بالشهر الواحد. وراتبي من الجيش كان حوالي 120 ليرة بالشهر، وفي الشهر الاول كان 30 ليرة بعد خصم ثمن البدلة العسكرية، برتبة مرشح ضابط.المهم نقلت عائلتي إلى البيت الجديد وبمساعدة الدكتور ابو سكسوكة مهدي قسوات وسيارته الخاصة.

علاقتي الحزبية الرسمية استمرت عن طريق الرفيق أبو ابراهيم، الذي في يوم من الأيام دعاني للمشاركة في اجتماع لأصدقاء الحزب في بيته الواقع في حي القصاع، قصور، ويشارك فيه الرفيق ابراهيم بكري عضو المكتب السياسي، وطلب مني أيضا أن ألقي كلمة تدور حول قيادة خالد بكداش السلبية في تاريخ الحزب الطويل. حضرت الاجتماع ومعي صديقين للحزب أحدهم الدكتور مازن علوش، الذي كان يجلس بجانبي مباشرة. ألقى الرفيق ابراهيم بكري كلمة مطولة عن نشاط الحزب الحالي وعن خطه السياسي الجديد، وبعدها قام عريف اللقاء بتقديمي باسم مستعار، أبو فهد، لإلقاء كلمتي... بدأت بالحديث، وإذا بالدكتور مازن يشدني من جاكيتي طالبا مني الجلوس، لافساح الكلام لأبي فهد. لم يكن يعلم بأنني أبو فهد. الاجتماع كان ناجحا، وشارك فيه الحضور بطرح الاسئلة والنقاش من خلالها. الاسم المستعار كان مرده، بعدم السماح، من قبل النظام، للمجندين بالجيش، من ممارسة السياسة.

وبالعودة الى العمل، بعد أن تأكد الدكتور مصطفى سلاخو، من مقدرتي النظرية والعملية أصبح يداوم على العمل بشكل متقطع ولساعات قليلة،معتمدا علي.وبعد فترة قصيرة صار يجلسني على كرسيه الكبير المتحرك في صدر مكتبه، ويجلس هو بجانبي على كرسي عادي، ولما كان يأتي أحد المساعدين بطلب استشارة أو سؤال، كان يقول له اسأل المعلم، مشيراً إلي. تطورت العلاقة بيننا إلى درجة الثقة الكاملة والصداقة مع الأيام.في بيتي الجديد كانت تعقد سهرات لطيفة جدًا يحضرها بشكل متزايد عدد من مثقفي دمشق وظرفاءها، أمثال نايف بلوز وممدوح عدوان ومازن علوش، وعلي كنعان ونصر الدين البحرة، والدكتور سعد النابلسي وغيرهم. ولم أكن أدعو الدكتور مصطفى، لانه رئيسي، وأنتظر

المبادرة منه. حتى دعاني لأول مرة إلى العشاء في مطعم القصور في الغوطة الغربية، وبعدها تتالت دعواته من قبلي.

-الفصل التاسع عشر-

عود على بدء

بعد انقطاع عن الكتابة، دام أشهراً عديدة بسبب مرض شديد أقعدني في مشافي برلين لفترات طويلة، أعود اليوم إلى الكتابة، بعد مناشدة الكثير من القراء لمتابعة زوايا من الذاكرة.

كنا توقفنا سابقاً عند تكليفي بالإشراف على دورة تدريب أطباء الأسنان علمياً وإدارياً على الإسعافات الأولية، حيث لم تكن المهمة التي كلفني بها الدكتور مصطفى سلّاخو سهلة وهينة، فتعليم أطباء أسنان مباديء الإنعاش الطبي وإسعاف المرضى وتحرير طرق التنفس وإجراء التنفس بواسطة الكمامة إلى التنبيب الرغاميّ، من الأمور المعقدة والصعبة طبياً.

ولأن المعرفة المهنية بكل فروعها تعتمد على أمرين، القاعدة النظرية، والتدريب العملي.

لذلك عكفت مدة أسبوعين على كتابة كرّاس مختصر أشرح وأوضح فيه المعارف النظرية مع بعض رسوماتها لهذا العلم الواسع.

كنت كل يوم أقوم بتدريس المواد النظرية لمدة ساعتين، ثم أرافق الأطباء المتدربين إلى غرف العمليات للتدريب العملي، وأريهم أحياناً مراحل تخدير المرضى المعقدة والصعبة.

برز من بينهم في سرعة اندماجهم ورغبتهم الواضحة في التعلم، بعض الأسماء، منهم الدكتور مازن علوش المتميز بذكائه وبقدرته على التقاط أدق اللحظات.

وبالتالي زاد اهتمامي به مقدماً الكثير من المعلومات خارج ساعات الدوام، وأصبحت أكلفه ببعض المهمات كزيارة المرضى قبل يوم من إجراء العمليات الجراحية، وفحصهم وتحضيرهم نفسياً لما ينتظرهم مع شرح الأخطار الممكنة.

ومع نهاية الدورة أصبح الدكتور مازن شبه طبيب تخدير من حيث المعارف والمهارات.

كانت عيادتي وعيادة زوجتي المجانية لكل المرضى فقيرهم وغنيهم ملحقة ببيتي الذي يقع في حي القصاع امتداد شارع بغداد القريب من المستشفى الفرنسي، مقابل كنيسة الصليب. كان البيت ذي الفرش المتواضع جداً، يضج بالزوار والضيوف من الرفاق والأصدقاء. وكان الرفاق رياض الترك وفايز الفواز ويوسف نمر ومحمد ديب الكردي وأبو فهد الحريري وغيرهم يترددون دوماً على البيت.

بعد فترة قصيرة من وجودي في دمشق، كلفت من قيادة الحزب بتشكيل مكتب يهتم بالعمل بين المثقفين ورعايتهم سياسياً. وكان من بين أعضاء هذا المكتب رفاق لهم علاقة بالعلم والثقافة منهم على ما أذكر الصيدلاني نقولا الزهر والمهندس بسام عبيسي، والاقتصادي فؤاد اللحام، والمعلوماتي مصطفى شاكر، وجورج نمر وغيرهم من الذين نسيت أسماءهم.

كنا نجتمع في بيتي أسبوعياً ونقوم بالتواصل مع المثقفين والشعراء أمثال ممدوح عدوان، علي كنعان، نزيه أبو عفش وعلي الجندي. وننظم بين الحين والآخر ندوات يتكلم فيها الرفيق رياض الترك، ويجيب على أسئلة الحضور. وكان حزبنا الحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) يتمتع بشعبية كبيرة.

وكنا ننظم رحلات إلى غوطة دمشق ندعو إليها مثقفي دمشق، تتخللها نقاشات سياسية معمقة وأغان وطنية وطعام وشراب.

وفي احدى المرات نظمنا لقاءً ضم عدداً كبيراً من المثقفين والأساتذة الجامعيين في بيت زهير بغدادي، شقيق الشاعر شوقي بغدادي-كانت تلك الفترة بداية التواصل سرياً بين الحزب وبين الدكتور جمال الأتاسي، وحزب العمال الثوري-تكلم فيه الرفيق رياض الترك مطولاً شارحاً سياسة الحزب واعتراضاته على سياسة النظام الحاكم.

بعدها بدأ الحضور بطرح أسئلتهم، ومنهم صديقي العزيز الدكتور محمد سعيد النابلسي الأستاذ في كلية التجارة بجامعة دمشق رحمه الله. الذي سأله عن موقف الحزب اتجاه

التحالفات مع الأحزاب الوطنية الديمقراطية المعارضة، فما كان من الرفيق رياض إلا أن التفّ حول السؤال وتكلم بموضوع آخر.

قبل أن ينفك اللقاء في الختام، أخذني الرفيق رياض على حدة، وسألني فيم إذا كان "عقلات صديقي الدكتور سعيد النابلسي بيخضوا" أي غير متوازن باللهجة الحمصية، مضيفاً أنه في هذه الحالة – أي موضوع التحالفات -لا يخبر أعضاء المكتب السياسي للحزب بذلك، فقلت: لماذا هذا الكلام؟ قال: كيف يسألني عن التحالفات؟

توقفتُ عند الجملة الأخيرة طويلاً مكتشفاً ميلهُ للتفرد بالقرار واستخفافه بالقيادة الجماعية.

طبعا أخبرت عدداً من أعضاء المكتب السياسي للحزب بما جرى، ومنهم يوسف نمر ونبيه جلاحج، لكنني أعتقد أن أحداً منهم لم يتجرأ على طرح الموضوع في اجتماعات المكتب السياسي. وبمناسبة ذكر اسم الرفيق نبيه جلاحج أبو نوار فإني أرغب بالتوقف عنده، وهو رفيق يتمتع بالذكاء والنباهة إضافة إلى تمتعه بأخلاق عالية وسلوك مستقيم يندر مثيله. ولم أتعرف بحياتي الحزبية الطولية على رفيق شيوعي يضاهيه ولا أزال أحتفظ له باحترام ومحبة خاصة.

كنت أخوض نقاشاٍ معمقاً مع الرفاق رياض وفايز الفواز. حول ضرورة التأني والحذر عند كتابة افتتاحيات جريدة "نضال الشعب" في مهاجمة النظام المستمرة، وبأن حزبنا غير مؤهل لخوض معركة مع النظام الاستبدادي، وبأن أرائنا لم تصل إلى الجماهير، فكل ما نطبعه من الجريدة خمسة آلاف عدد فقط، فكان جوابهم بأن الخط السياسي الصحيح هو الأساس، وكنت أقول لهم أن الأهم هو إيصال الخط السياسي إلى الناس، والتفاف الجماهير حوله، فأنا أعمل بالقطاع الصحي ولست قادراً على تنظيم اعتصام أو إضراب في أي من المشافي التي أعمل بها.

كان الأستاذ ميشيل كيلو من الناس المقربين من قيادة الحزب وينشط أيضا بين المثقفين. وكثيراً ما كان يتضارب عمله مع عمل مكتبنا من حيث المواعيد والمناسبات. فدعوته لأن

يدخل الحزب وينضم لعضوية المكتب المهتم بشؤون المثقفين. فأجابني أنه لا يرغب بذلك ويفضل البقاء خارج التنظيم حالياً، وبأن تروتسكي بقي خارج الحزب البلشفي حتى اندلاع ثورة أكتوبر العظمى، وبعدها أصبح وزيراً للخارجية ومن ثم قائداً الجيش الأحمر.

كان رياض الترك يكلفه أحيانا بكتابة افتتاحية الجريدة. وكان أحيانا يقربه منه كثيرا. وأحيانا يتقرب من أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق نايف بلوز.فيثير حسده وحنقه. كان ميشيل يرى بنايف منافسه وغريمه.

في هذه الفترة كنت على علاقة طيبة مع الرفيقين إبراهيم بكري ودانيال نعمة، وأيضا مع الرفيق ظهير عبد الصمد، الثلاثي أعضاء المكتب السياسي، وكانوا يحدثوني عن إهمالهم من قبل رياض الترك وفايز الفواز عند اتخاذ القرارات، حتى وصل الأمر حسب قولهم، إلى ارتفاع صوت الرفيقين بوجوههم دلالة على قلة احترام واضحة. ما جعل هذا الثلاثي يغادر الحزب وينضم إلى حزب خالد بكداش. ومن الأسباب الهامة التي دعتهم إلى هذا التصرف أيضاً أنهم فكروا بكبر السن ومن الذي سوف يؤمن لهم معاشاً تقاعدياً للعيش بكرامة. ومن الذي سيرعي شيخوختهم ويعالج أمراضهم. فلم يروا إلا الاتحاد السوفياتي مؤهلاً لذلك.

كانت عملية مغادرتهم خسارة كبرى للحزب الشيوعي (المكتب السياسي) والقيادة الجماعية فيه.

في هذه الفترة بدأتُ بتشجيع زوجتي على السفر لألمانيا الديمقراطية لإكمال دراسة الاختصاص والحصول على الشهادة، وقد امتثلت لذلك وسافرت مع ولدينا الصغيرين منى وفايز، وبدأتْ بالعمل رغم الصعوبات الجمة، وكانت زوجتي صاحبة إرادة حديدية متسلحة بعقل منظم.

كان يعمل معي في المستشفى العسكري بالمزة طبيب متدين متزمت من آل قويدر، وعندما سمع بسفر زوجتي لامني بل أنبني على فعلتي هذه، لأنه لا يجوز للمؤمن أن يبتعد عن زوجته لمدة طويلة.

فأجبته بأنني مدرك لهذا الموضوع، ورويت له قصة الخليفة عمر بن الخطاب أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق، عندما بدأ المقاتلون يطالبون بالحصول على الإجازات بشكل متواتر. لزيارة زوجاتهم في الحجاز والجزيرة العربية، فسأل ابنته حفصة (وهي احدى زوجات النبي محمد): كم تطيق الزوجة فراق زوجها؟ فقالت: ثلاثة أشهر. فأصبح يسمح للمقاتلين بالإجازة كل ثلاثة أشهر.

وقلت له أنا أيضا سوف أزور زوجتي وعائلتي في ألمانيا كل ثلاثة أشهر. وفعلا كنت أسافر كلّ ثلاثة أشهر إلى هناك رغم أنني كنت مجنداً إجبارياً، وأحتاج إلى موافقة القيادة العسكرية، لذلك حصلت على جواز سفر مدني بمساعدة أحد أصدقائي، وفي كل مرة كنت أحصل على تأشيرة سفر من السفارة الألمانية الشرقية وأسافر.

كانت السفارة الألمانية الشرقية على علم بنشاطي المكثف في الحزب الشيوعي (المكتب السياسي) المتهم بمعاداة السوفييت ودول المعسكر الاشتراكي.

ذهبت في آخر المرات إلى السفارة للحصول على تأشيرة فامتنعوا عن ذلك، وقالوا نعطيك تأشيرة للذهاب إلى برلين الغربية مباشرة مروراً ببرلين الشرقية ترانزيت فقط. وافقت مجبراً وركبت الطائرة إلى هناك، ومن حسن حظي التقيت بنفس الطائرة بالسيدة زوجة محمد علي فرحة أمها للسيدة وصال فرحة زوجة خالد بكداش.

كنت قد تعرفت عليها أثناء عملي بمستشفى المواساة. حيث كنت أعالج ابنها لمدة شهر كامل، وكانت هي تزوره يومياً، وعند شفائه قالت لي أنا أملك طنجرة تتسع لخروف، وسوف أذبح خروفاً وأستضيفك في بيتي تعبيراً عن امتنانها لجهودي الطبية ولكني لم ألبِّ الدعوة.

وصلنا إلى مطار برلين الشرقية، وكان عليّ أن أغادر فوراً إلى برلين الغربية عن طريق مخرج خاص.

شاهدت أم عوض الفرحة ما حصل وكيف تم منعي من الدخول إلى برلين الشرقية، فجلست على أرض المطار، وأعلنت أنها سوف لن تغادر. إلا إذا سمحوا لي بالدخول أيضاً، كان ابنها عوض وابنته ريم وزوجها ينتظرونها بالخارج، وهي مصرة على عدم الخروج إلّا برفقتي. وبدأت الاتصالات بأعلى المسؤولين الألمان وإعلامهم بالموضوع الشائك هذا، ثم جاء الأمر بالسماح لي بدخول أراضي ألمانيا الشرقية وبرفقة أم عوض الوفية.

سافرت لبلدة زوجتي وبقيت هناك لمدة ثلاثة أسابيع، عدت إلى الوطن ووجدت الوضع أكثر توتراً بين الحزب والسلطة بعد موقفه الرافض عبر بيان علني لدخول الجيش السوري إلى لبنان في حزيران 1976، وضرب القوى التقدمية اللبنانية والفلسطينية في جبال عاليه وصوفر.

-الفصل العشرون-

من الذكريات النادرة التي لن أنساها مدى الحياة، أنني خرجت من البيت وفي جيبي خمسة ليرات سورية لا أملك غيرها فقد نضبت مدخراتي التي وفرتها من عملي السابق في المستشفى الإيطالي في مدينة حلب وبحكم عملي البعيد عن المنزل (طبيب مجند) في مستشفى المزة، اضطررت لإخذ سيارة أجرة لإيصالي إلى مشفى المزة العسكري.

دخلت إلى قسم التخدير وإذ بالعقيد الدكتور مصطفى سلاخو يسألني بلطف فيما إذا كنت اليوم مستعدا للعمل في قسم الأذن والأنف والحنجرة، دون أن يستخدم لغة الأمر ,وهذا ما كان يميز هذا الإنسان المهذب اللطيف. فقلت له طبعا سأقوم بذلك. كان قسم الأذنية يقع في بناء آخر، فأخذت معي أحد المساعدين من صف الضباط، ممرض تخدير مختص وتوجهت إلى هناك. كان يعمل هناك طبيب أذنيه برتبة عقيد يدعى عبد الرحمن عفان، وهو يملك عيادة خاصة يعمل فيها بعد انتهاء الدوام في المستشفى العسكري.

وهذا الطبيب كان لا يتقن من الطب سوى عملية استئصال اللوزتين، حيث يطلب من المريض مبلغ مئة ليرة سورية فقط لقاء كل من الفحص الأولي واستئصال اللوزتين وزيارة المريض في بيته في المساء، هذا الأجر يعتبر منخفضا جدا مقارنة ببقية العيادات في تلك الحقبة لذلك كان يدعى بطبيب الفقراء. كان يقوم في كل يوم بعد الظهيرة بإجراء ما يقارب ثمانية إلى عشرة عمليات، وكان يساعده ممرض يعمل أيضا في المشفى العسكري يدعى محمد حمامة من حلب، شاب شديد الذكاء والنباهة، يملك طاقة مميزة وسرعة ودقة في العمل ويعطيه الطبيب عن كل عملية مبلغ خمسة ليرات، ويعطي طبيب التخدير مبلغ خمسة وعشرين ليرة على كل عملية.

وكما ذكرت في البداية خرجت من البيت ولم يكن معي سوى خمسة ليرات، ولم أكن أدرى كيف سأطعم زوجتي وولدي الصغار منى وفايز على الغداء. وبالمناسبة أروي لكم بأنني كنت شابا متعصبا جدا لمبادئي وأفكاري، فقد كنت قد نذرت على نفسي عدم الاستدانة وطلب أي مساعدة مادية من أحد، مهما كانت الظروف. وكانت عيادتي مجانية وغير مستعد للتنازل عن هذا المبدأ الذي وضعته اختيارياً بنفس الوقت.

خدرت أول مريض لعملية لوزات للدكتور عبد الرحمن عفان وثاني مريض وثالث ورابع الخ وكنت في كل مرة أقوم بالتخدير بطريقة حديثة وغير معروفة من قبل أطباء التخدير السوريين، تعلمتها في المانجا وتدعى بالألمانية **Neuroleptic Analgesie**.

وهي طريقة تعتمد على إزالة الألم وتثبيط الوعي دون إزالته بالمطلق عن طريق المخدرات الطيارة مثل الأيسر أو الهالوتان اوغيرهم. فكان المريض يستيقظ فور انتهاء العملية دون الشعور بالألم. وكان قادرا أيضا على الكلام مباشرة.

لاحظ الدكتور عفان هذه الظاهرة وشد على كتفي قائلا كيف بعثك الله لي؟ أنت ستذهب في نهاية الدوام معي إلى عيادتي حيث ينتظرني عشرة مرضى.

كانت غرفة عملياته صغيرة تضم طاولة عمليات وبجانبها أريكة نوم لا غير.

يدخل المريض ويستلقي على طاولة العمليات وأباشر بقياس ضغطه وعد نبضه وسماع دقات قلبه خلال لحظات ثم أقوم بعمل نقل ملحي بسيط عن طريق أحد أوردته، وأبدأ بتخديره ويبدأ الدكتور عبد الرحمن بعملية استئصال اللوزتين بسرعة خيالية ثم نضع المريض على الأريكة، بينما يدخل المريض الذي بعده لأجراء العملية الثانية وقبل أن تنتهي العملية الثانية كان على المريض الأول مغادرة غرفة العمليات للذهاب إلى بيته مع مرافقه طبعا.

كنا في الساعة الواحدة نقوم بإجراء ثلاثة عمليات.

وخلال ثلاث ساعات ونصف أنهينا عشرة عمليات بالتمام والكمال. عند الانتهاء قام الدكتور عبد الرحمن بتقديم جزيل شكره وامتنانه لطريقتي الجديدة في التخدير والتي وفرت الكثير من الوقت في إيقاظ المريض، وقبضت منه مئتان وخمسون ليرة في ذلك اليوم مع الأخذ بعين الاعتبار أن راتبي في الشهر من قبل مستشفى المزة العسكري حوالي مئة وعشرين ليرة لا غير وأجرة منزلي ثلاثمئة وعشرون في الشهر.

وفي نهاية ذلك اليوم عرجت على مطعم شهير في شارع العابد يقوم بشوي اللحوم وابتعت ما يكفي لطعامنا في البيت مرفوع الرأس.

وقبل أن أنهي هذه الحادثة، أقول عندما وقفت على رأس طاولة العمليات قرأت على الحائط المقابل ضمن برواز زجاجي أنيق أية قرآنية كريمة نصها التالي.

(ومن يتقي الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)

فقلت في نفسي هذه الآية الكريمة أنزلها الله من أجلي. (أستغفر الله).

ولا أزال إلى اليوم أردد هذه الآية الكريمة.

حدث ذلك في بداية العام ١٩٧٤.

استمريت في العمل مع الدكتور عبد الرحمن عفان حتى سفري إلى ألمانيا، وكنت أقوم بتخدير بعض المرضى صباحا في مستشفى نعسان أغا، كما أذكر، رغم نسياني الأسم الصحيح.

وهكذا تطور دخلي الشهري إلى حوالي خمسة أو ستة آلاف ليرة، كنت أنفقها في دعوتي المستمرة لمعارفي وأصدقائي إلى المنزل أو المطاعم العامة، وأنفق بعض منها في مساعدة المرضى الفقراء بدفع ثمن الدواء الذي أقوم بوصفه لهم ولا يستطيعون دفع ثمنه.

أصبح لدي عدد كبير من الأصدقاء والمعارف من كل الاتجاهات السياسية.

وكان صديقي المقرب واليومي الدكتور سعد النابلسي، المثقف البعثي قديما والماركسي حديثا، يساعدني بالتعرف على العديد من القيادات البعثية السابقة والمعارضة لحافظ الأسد أمثال أبو نسرين، رئيس الشرطة العسكرية سابقا والعديد من الشخصيات الرئيسية السابقة أيضا والذين نسيت أسمائها.

وكان يساعده في ذلك شاب ذكي رقيق من الرقة كان يسكن معي في بيتي خلال كل فترة غياب زوجتي بقصد الدراسة في المانجا. وقد جمعتنا علاقة صداقة واحترام قوية وهو يعمل صحفيا في القيادة القومية لحزب البعث، حيث يدخل أروقة القيادة القطرية، وينقل لي أخبار القيادتين في تلك الفترة، وقد قام بتعريفي بأحد الشخصيات العراقية وهو عضو القيادة القومية عن القطر العراقي في سورية، والذي نسيت اسمه الأن أيضا، الذي زارني فيما بعد لأكثر من مناسبة.

سعد النابلسي عرفني على السفير اليمني في دمشق، وأصبحنا أصدقاء حميمين، وصار يبعث المرضى من موظفي وعمال سفارته إلى عيادتي للعلاج.

وكان يدعوني مع سعد النابلسي إلى بيته، وخلال إحدى هذه الدعوات، رن هاتف منزله وبعد مكالمة ليست قصيرة، التفت إلينا السفير اليمني قائلا معي على الخط العقيد علي أبو اللحوم، وهو ضيف على حافظ الأسد، باعتباره أيضا من زعماء عشيرة عبس، وهو أي على أبواللحوم يصر على دعوتنا جميعا إلى بيته للعشاء معه فما رأيكم؟ تدارست الأمر مع سعد وقلنا للسفير موافقين، وهو بدوره أبلغ العقيد علي على موافقتنا، وتوجهنا فورا بسيارة السفير إلى منزل العقيد علي أبو اللحوم.

منزل يقع في المزة الغربية، واسع جدا، جلسنا في صالونه الكبير الذي على شكل حرف ال بالإنكليزية في القسم الصغير من الصالون، شربنا أعداد من كؤوس الويسكي مع الحديث الودي والترحيب، وكان الهدوء التام يسيطر على أجواء الصالون، ولم نسمع صوتا ولا حسا، وفجأة يدعونا العقيد علي أبو اللحوم إلى الطعام في الجزء الطويل من الصالون، وإذ نحن أمام طاولة طويلة جدا تتسع لحوالي أربعة وعشرين شخصا، وعليها صحون عديدة مليئة بكل أنواع اللحوم وبصحون معدنية كبيرة مليئة بالأرز. وقد أثار الأمر دهشتنا.

أولا لأننا لم نسمع أي صوت خلال إعداد هذه المائدة الضخمة من قبل أهل بيته ولم نسمع أي صوت يخبره بجهوزية الطعام، أكلنا حتى شبعنا، ورغبت بإعداد مقلب لصديقي سعد، عندما طلبت منه أن يسأل العقيد علي عن مصدر كلمة أبو اللحوم، اسم عائلته، وعند سؤاله

قلت لسعد بصوت عالي هل أنت مصاب بالعمى ألا ترى هذه الكمية الهائلة من اللحوم على المائدة. عندها تبسم العقيد وقال بالفعل اكتسبنا الاسم لان موائدنا كانت عامرة باللحوم دائما.

في هذا العام أيضا أي ١٩٧٤جرى إعلامنا من قبل قيادة الحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) عن مشروع القرض الوطني، وهو مشروع يسعى للحصول، من خلال التبرعات والاستدانات على مبلغ كبير يوظفه الحزب في مشروع صناعي أو تجاري، يدر على الحزب دخل ثابت يكفي لمزاولة نشاطه.

فقمت بالتبرع بمبلغ كبير وصل إلى خمسة عشرة ألف ليرة سورية وكذلك قام الرفيق بسام العبيسي بتقديم مبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة.

كان عدد زواري ومرضاي، وأغلبهم من الفلسطينيين، قد بلغ أعدادا كبيرة وفي أغلب التي الأيام كانت زوجتي تدعوا الجميع لتناول الطعام ظهرا أو مساءا.

وكنت أقوم بالعمل في مستوصف الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين مرتين بالأسبوع بعد الظهر، بناء على دعوتي من قبل قيادة حزبنا الشيوعي (المكتب السياسي).

سعد أوسعيد النابلسي صديقي الدائم رجل متزن ومثقف رصين، يقول لي أثناء انتعاشي وفرحي بزيادة أعضاء الحزب وأصدقائه، أنتم لا تزالون سوى مشروع حزب قد ينجح وقد لا ينجح. وعندما أتذكر إلى أين وصل حال (حزب الشعب الديمقراطي)، الذي أسسه رياض الترك في عام 2005، أستعيد كلماته بكل وضوح.

-الفصل الحادي والعشرون-

بدأت تظهر بين صفوف المكتب السياسي للحزب، الذي انتخبته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) المنبثقة عن المؤتمر الرابع (كانون الأول1973)، خلافات وتباينات في وجهات النظر. من أسبابها الرئيسية الموقف من النظام والموقف من السوفييت، في تلك المرحلة كان بعض الأعضاء من المكتب السياسي أكثر قرباً سياسياً للجنة المنطقية والتي كان يرأسها الرفيق حنين نمر الدمشقي الأكثر قرباً الى الناس والجماهير. وهو شاب ذكي وصاحب قلب أبيض، محبوب، محترم، وذو لسان طليق تلتف حوله أغلبية أعضاء اللجنة المنطقية وأغلب الكوادر والنشطاء الحزبين الذين يضعون ثقتهم به، وكان موضع محبة زملائه في العمل وكذلك في حيه القصاع، أما الرفيق رياض الترك فلم يكن يتمتع بهذه الصفات، له احترامه عامة ولكن ليس محبوبا كالرفيق حنين.

وأيضا كانت اللجنة المنطقية هي الجهة الأكثر قربا من مكتب المثقفين حيث تقوم بدعمه وتوجيهه وحضور اجتماعاته.

أما الجريدة المركزية: "نضال الشعب" التي تصدر شهريا فغالبا هي خالية من أخبار الاتحاد السوفياتي وبقية الدول الاشتراكية، بل كانت أحيانا تقوم بتلميح نقدي للسياسة السوفياتية في لاوس وافغانستان. والأهم من ذلك كله خلو كامل الجريدة من زاوية ثقافية تشرح النظرية الماركسية اللينينية. أما افتتاحيات الأعداد فأصبحت تزداد نقدا للنظام وتتهمه بترتيب البيت الداخلي السوري استعدادا منه لتغيير سياسة النظام لصالح التفاهم مع الغرب والتصالح مع أميركا أو التسريع به.

وبعض تلك الافتتاحيات كانت شديدة اللهجة تجعلنا نشعر بخطر الاعتقال من قبل الأجهزة الأمنية، مما يستدعيني للنوم خارج البيت أحيانا، ونقل أوراقي وبعض المطبوعات الحزبية الأخرى إلى بيوت الجيران أو إلى بيوت بعض الأصدقاء.

كانت في هذه الفترة تتدفق على البلاد، بعد حرب ألف وتسعمائة وثلاث وسبعون أموالا طائلة حيث بدأ معها ارتفاع هائل في أسعار الأراضي والمباني والعقارات وارتفاع متصاعد في أسعار وسائل المعيشة، وكان ذو الهمة عيسى شاليش لا يزال يتردد بزياراته إلى بيتي،

وقد طلب مني يوما أن أقوم بالتعرف على شقيقه رياض شاليش، فذهبنا بسيارته إلى غوطة دمشق، وهناك وجدنا رياض يعمل بيده في صنع بلوكات أو خفان البناء على مكابس بدائية عادية والعرق بتصبب منه، فتعجبت في نفسي كيف يقوم بهذا العمل وخاله حافظ الأسد، وقدرت له عصاميته واعتماده على نفسه ولم يمض وقت طويل على هذا اللقاء، حتى جاءني ذو الهمة يطلب مساعدتي في عدم إغلاق مصنع رياض لأن محافظة ريف دمشق طلبت منه ذلك بحجة أنها أي الغوطة منطقة زراعية وليست صناعية.

كنت أعرف محافظ ريف دمشق ابن الغوطة بواسطة العقيد الطبيب مصطفى سلاخو، وكنت قد جالسته عدة مرات على طاولة الشراب الذي يحتسيه بشراهة. لم أتردد بالمساعدة فذهبت إلى المحافظ رياض بدون تردد، وشرحت له الأمر، إبن أخت رئيس جمهورية عصامي يعمل بيديه وبعرق جبينه حتى يُحصل قوت يومه، وأنتم تهددوه بإغلاق معمله الصغير هذا. أرجوك أن توعز إلى المختصين بأن يغضوا الطرف عنه. والمحافظ رجل شهم طيب الخلق وعدني بتنفيذ ذلك.

ورياض شاليش هذا أصبح فيما بعد من أغنى رجال أعمال سوريا حيث يملك أساطيل في البحار وقصور في البر.

وبقي ذو الهمة عيسى شاليش يداوم على زيارتي يومياً ويأكل على موائدي من الطعام البسيط والرخيص من حمص وفلافل وفول، وعندما كنت أضع (بسطرمة) على الطاولة، كان يبدي فرحا كبيرا، وقد صار معروفاً للعلن بأنه من معارفي بمن فيهم إخوته وأقاربه وأصدقائي المقربين.

أذكر هذا لأن حادثة غريبة جرت معي، في إحدى الأمسيات وكنت في عيادتي، رن جرس الهاتف وكان معي على الطرف الآخر من الخط العميد مصطفى النابلسي، مساعد وزير الإدارة المحلية، صديقي وشقيق صديقي محمد سعيد النابلسي. كان صوته متهدجا ملتاعا وهو يقول لي (دخيلك)، (ايدي بزنارك) يا أبو فائز أنقذ أبني أحمد من القتل، فقد تورط بمشاجرة مع حرس أحد بيوت رفعت الأسد المقابل لبيتنا في حي الروضة، المخصص

لإحدى زوجاته المدللات من آل الخير، على ما أذكر، وهم يطلقون الآن الرصاص على بيتنا، وأنت الوحيد الذي يستطيع ردعهم والا قتلوا أحمد. سألت بعد أن أغلق من هو المشرف على فريق الحرس قالوا لي العقيد أو الرائد محمد شاليش، فتكلمت معه فورا على الهاتف وبدون معرفة شخصية سابقة معه، وقلت له بصوت عال: "ولك انتم لا تستحون تهاجمون بالرصاص بيت إحدى الشخصيات الوطنية البارزة، صاحب الأفضال العديدة على الوطن وتهددون ابنه بالقتل" سألني عن اسمي قلت له الدكتور جون نسطة، فقال تمهل لعدة دقائق وسوف أنهي الموضوع. وبالفعل لم تمض ربع ساعة وإلا هاتفي يرن وصوت العميد مصطفى يشع فرحاً وهو يقول شكراً جزيلاً يا أبو فايز على ما قمت به من إنقاذ ابني وابنك أحمد فقد توقف كل شيء.

هذه حادثة لا أنساها طوال عمري ولم افهم أسبابها إلى اليوم وكنت وقتها طبيباً مغموراً في دمشق وعضو حزب معارض ايضاً. وحادثة أخرى مماثلة جرت معي أرغب بروايتها للقارئ الكريم. مع بداية تواجدي في دمشق جاءني صديقي المفضل والأبهى والأوفى مصطفى شاكر وقال أريد أن أعرفك على شاب بعثي ظريف ولطيف اسمه عبد حداد وهو يعمل صحفي في وكالة سانا ويتردد على القيادتين القومية والقطرية ويعرف أغلبية أعضائها وهو شاب فقير من ريف الرقة ويقف معنا سياسياً.

وبالفعل تعرفت على هذا الشاب الودود اللطيف وصاحب جرأة ليس لها مثيل، وأصبح يتردد يومياً على عيادتي وبيتي عارضا خدماته على زوجتي الإنسانة المتواضعة الحنونة، وبعد سنوات من المعرفة حاولت فيها أن أشجعه على الدراسة والحصول على الشهادة الثانوية العامة واشتريت له الكتب وقلت له ندرس سوية ونتقدم للامتحان سوية وندرس في الجامعة سوية، كان شابا ذكيا يلتقط الأسماء والأشياء المعقدة، ولكنه لا يملك القدرة على الدراسة.

صار عبد فرد من أفراد الأسرة، يأخذ أولادي منى وفايز في نزهات خارجية ويلعب معهم ويدخل إلى المطبخ ليغلي الشاي مشروبه المفضل، ويأكل ما حضر.

وعندما سافرت زوجتي والأولاد إلى ألمانيا بقصد متابعة دراسة الاختصاص، أصبح ينام عندي هو وصديقي سعد النابلسي ونحيي الليل بالسهر.

كنت أعتقد أن عبد رجل صاحب عزوة عند نظام الأسد وله باع طويل عند أجهزته الأمنية ويشكل حماية لي نظرا لمحبتي ومعاملتي الجيدة له. كان رفاقي في الحزب يشكون في أمره ويطلبون مني الجذر تجاهه. وكنت أصرح لهم دائما أن الآية معكوسة عند عبد فهو لا يتجسس علي بل يتجسس على حزبه لصالحي وينقل لي أخبار القيادتين القومية والقطرية وصراعات الفرقاء فيهما.

في إحدى الأمسيات كنت أعالج أحد المرضى وإذا بجرس الهاتف يرن وعلى الطرف الآخر كان صوت عبد يجهش بالبكاء وهو يقول "قتلوني وضربوني وجرحوني" فسألته من منهم فقال مجندون عسكريون كنا سوية ضيوفا عند أحد الأصدقاء وبعد ملاسنة بسيطة قاموا بضربي ضربا مبرحا وأسالوا دمي.

أدهشني الأمر الذي شكل لي مفاجأة غير متوقعة ولم يكن في يدي حيلة فأنا لا أعرف أحدا من رجال السلطة ولكني فجأة وأنا معه على الهاتف تذكرت الأمس حين كنت أمشي في شارع خالد بن الوليد وسط العاصمة تقابل وجهي مع وجه شاب كنا ندرس سويا في الصف التاسع في مدرسة البطركية في شارع الزيتون ورغم مرور سنوات طويلة، استطعنا التعرف على بعضنا بكل وضوح، شاب أبيض الوجه شعره أحمر شركسي يدعى أديب ونسيت للأسف إلى اليوم أسم عائلته وأخذنا بعضنا بالأحضان، وبعد حديث قصير فهمت منه أنه أصبح عقيدا في الشرطة العسكرية وفي قيادة موقع دمشق وقام بتسليمي كرت تعريفه عليها أرقام هواتفه، طالبا الاتصال به بدون أي حرج حين أحتاج أي مساعدة.

أغلقت مع عبد واتصلت مباشرة بالعقيد الصديق أديب موضحاً عنوان عبد بدقة وأخبرته ما حصل. فأرسل مباشرة دورية عسكرية قامت بواجبها على أكمل وجه. ارتفعت أسهمي كثيرا عند صديقي عبد وأصبح يعتقد أنني من أصحاب النفوذ ولكن تواضعي يغطي ذلك.

كانت اجتماعاتنا في مكتب الإشراف على المثقفين منتظمة ونشأت بين أعضائه صداقات متينة لا يزال بعضها مستمر إلى اليوم مثل صداقتي مع الاقتصادي اللامع فؤاد اللحام والمهندس بسام العبيسي على سبيل المثال لا الحصر.

وأصبح بيتي ملتقى للكثير من الرفاق القياديين أمثال الرفيق العزيز محمد ديب الكردي أبو دياب والرفيق يوسف نمر والرفيق نبيه جلاحج والرفيق فايز الفواز وأبو فهد خليل الحريري وغيرهم الكثير.

يوسف نمر كان وطنياً عروبيا ومتسامحا مع سياسات النظام، وهكذا بدأت ترشح رويدا رويدا الخلافات بين أعضاء المكتب السياسي وكانت في جوهرها ومنذ البداية تدور حول الموقف من السلطة والموقف من السوفييت. بالإضافة للموقف من العمل المشترك مع رابطة العمل الشيوعي وقول الرفيق رياض بأن حزبنا مصاب بالجبن والخوف ويجب التحرر منهما بأسرع وقت ممكن.

كانت القيادة ممثلة بالمكتب السياسي تضم في البداية ثلاثة عشرة عضوا وأصبحوا في نيسان 1976 بعد وفاة نوري حجو الرفاعي من حمص اثنا عشرة. مقسومون إلى كتلتين سبعة وخمسة أعضاء.

كان صديقي العزيز الدكتور نايف بلوز كثيرا ما يؤكد ويكرر القول بأن هذه القيادة ليس فيها رفيقا واحدا يستطيع أن يقود هذا الحزب بمفرده وأن يسد الفراغ الذي تركه خالد بكداش، ولكنهم إذا عملوا بشكل جماعي ومتعاون يستطيعوا أن يسدوا هذا الفراغ وأن يتجاوزوه نحو الأفضل.

كان هناك رفيقين قيادين فقط لا يترددوا على عيادتي أو بيتي إلا فيما ندر وهما الرفيق ميشيل عيسى والرفيق بدر غزي الطويل، والأخير كان يتمتع بخبرة سياسية وتنظيمية واسعتين بالإضافة إلى سلاح أيديولوجي ماركسي قل مثيله.

-الفصل الثاني والعشرون-

في ما سبق ذكرت بأن الوضع السياسي بين الحزب والسلطة يزداد توتراً، قابله بالحزب توترا بين اعضاء المكتب السياسي والعديد من الكوادر وبدأت السلطة العليا بالحزب تتركز بين يدي الرفيق رياض الترك والدكتور فايز الفواز.

في العام ١٩٧٧ قيل لنا بأن الحزب يمر بضائقة مالية ولهذا تقرر إلغاء التفرغ الحزبي وقطع رواتب المتفرغين ,مع أن راتب التفرغ زهيد جدا لا يتجاوز المئتان وخمسة وعشرون ل. س. لغير أعضاء المكتب السياسي أما لأعضاء المكتب السياسي فكان راتب التفرغ في ذلك الوقت خمسمئة ل.س كما روى لي الرفيق صبحي أنطون .وقيل لرفاق الحزب عليكم البحث عن عيادة خاصة مناسبة التكاليف للرفيق فايز ليعمل فيها كطبيب مختص،وينهي تفرغه.لكن مع ذلك لم يتم تفريغ الدكتور فايز ولم يتم قطع راتبه . أي أن الكلام لم يكن جديا بل نثرا في الهواء ، حيث كان هناك عددا ليس قليلا من المتفرغين في القيادة لم يعمل في حياته كلها سوى أنه موظف حزبي متفرغ.

ذات يوم زارني في عيادتي صديقي العزيز والرفيق المفضل لدي في صداقته واستقامته وخلقه الرفيع نبيه جلاحج وشرح لي وضعه المادي الصعب بعد إنهاء تفرغه.فقلت له رفيقي العزيز أنت حائز على شهادة في الحقوق وتستطيع العمل في مهنة المحاماة.فأجابني حتى تصبح محاميا عليك أن تكون عضوا في نقابة المحامين وعليك أن تدفع رسم الإنتساب ،وأنا لا ملك هذا المبلغ وقدره الفان ل س.فقلت له المشكلة محلولة.أنا أعطيك هذا المبلغ وأنت تصبح محاميا. في تلك اللحظة ونتيجة الضغط النفسي إنفرجت أسارير وجهه وفاض من عينيه فرح وسرور ،وقام بتقبيلي مرارا وتكرارا. وأشير هنا إلى ان المحامي الصديق نبيه قد أعاد لي المبلغ كاملا خلال السنوات التالية .

سجل الرفيق نبيه نفسه في نقابة محامي دمشق ،والتحق بمكتب المحامي العروبي التقدمي الكبير سامي ضاحي ،وبسرعة أصبح محاميا لامعا،وانخرط في العمل النقابي وغدا أفضل نقابيا وتم انتخابه مسؤول المالية لدورات عديدة..أما رياض نفسه فتخلى عن راتبه التفرغي

وحاول العمل في مكتب محاماة في حمص ،وبهذا يكون أول أمين عام بدون راتب تفرغ حزبي.

من المعلوم أن الحزب كان لديه تنظيم سري يقوده كليا الرفيق رياض ودون مشاركة أعضاء القيادة الآخرين.

تمركزت السلطة الحزبية بأيدي رياض الترك والدكتور فايز الفواز وانخفض عدد اجتماعات المكتب السياسي وتوزيع للمهمات الحزبية.بدأنا نشعر بالغربة وملاحظة فروقات المواقف السياسية والتنظيمية ،وبدأتُ حينها أشعر بخطر انقسام جديد.

في تلك الأيام كان السيد الدكتور محمد علي هاشم وزيراً للتعليم العالي وكان يأتي بزوجته إلى مستشفى نزار جمعان أغا عند الحاجة لأي مداخلة جراحية نسائية وأقوم أنا بتخديرها ورعايتها أثناء المداخلة.كان الاستاذ الدكتور الطبيب محمد علي هاشم معجب جدا بقدراتي الطبية وخاصة في اختصاصي في فن التخدير ،وكان يقول لي مثلك يجب أن يكون أستاذا جامعيا ولذلك أطلب منك أن تسافر إلى دولة أجنبية للحصول منها على شهادة أختصاص ،وعندما تعود سوف أعينك فورا مدرسا جامعيا.

بناءًا على الوضع الحزبي المزري وحرصا مني على الصعود المهني فكرت جديا بالسفر إلى ألمانيا الغربية للحصول على الشهادة المطلوبة.كانت بين أيدينا مجلة طبية تنشر اعلانات لبعض المستشفيات التي بحاجة الى أطباء للعمل فيها وخصوصا في ظل نقص أعداد الأطباء الألمان.

كتبت رسالة لأول مشفى ألماني أبدي فيها استعدادي للعمل كطبيب تخدير ،فجاء الجواب بسرعة فائقة يدعوني للقدوم فورا. كنت مرتبط في ذلك الوقت بعقد مدني مع وزارة الدفاع السورية ،وفك العقد ليس من الأمور السهلة ،فكتبت لهم بأنني أحتاج لفترة ثلاثة اشهر لفك العقد،ولكن زوجتي وهي طبيبة أمراض داخلية جاهزة للقدوم فوراً ،فكتبوا أنهم ليسوا بحاجة

لأطباء أمراض داخلية ولكنهم مستعدين لتوظيفها وإنهم مستعدين لدفع أثمان بطاقات الطائرة لي ولزوجتي وأولادي الاثنين.

وبالفعل سافرت زوجتي مع الأولاد وبدأت في العمل هناك.

وقمت أنا من جهتي ببذل كل امكانياتي واستخدام علاقاتي المتشعبة لفك العقد مع وزارة الدفاع ،رغم كونه عقدا مغريا جدا بقيمة ٢٢٠٠ ل.س شهريا موقعا من رئيس الجمهورية ،لأن وزير الدفاع السوري لا يحق له بتوقيع عقد مع أحد المدنيين يتجاوز مبلغ ١٥٠٠ ل.س.

أخيرا نجحت بفك العقد بعد ثلاثة أشهر وتوجهت بالطائرة إلى مطار كولونيا وكان يوم العاشر من شهر كانون الأول عام ١٩٧٧ يوم يصادف تاريخ ميلاد حبيبتي الصغيرة منى..

قبل خروجي من دمشق نلت موافقة منظمتي الحزبية و حصلت على موافقة لجنة الحزب المنطقية مع أسفهم الشديد و مع وعد قاطع مني بالعودة بعد ثلاثة سنوات على أبعد حد.

وفي مطار دمشق كان في وداعي أكثر من خمسين رفيقا وصديقا من اتجاهات سياسية متعددة.

وصلت ليلاً إلى مكان إقامة عائلتي وكان المنزل عبارة عن غرفة واحدة ومطبخ ينامون على صوفيات منخفضة وبسيطة من حديد حيث بدا المكان يشع بؤسا وفقرا والشيء الوحيد من وسائل الراحة والرفاهية كان جهاز التلفزيون.

كانت زوجتي من معدن خاص في الصبر والأناة وتحمل للمعاناة،تركب في الصباح على دراجتها وأمامها إبني الصغير فايز وخلفهاإبنتي منى متوجهة إلى روضة الأطفال لإيداع فايز هناك وعمره ثلاثة سنوات وتتابع لإيصال منى وعمرها خمسة أعوام الى المدرسة ثم تتابع غلى المستشفى لتعمل ثماني ساعات وتعود مع الاطفال على نفس الطريق لتقوم بشراء

بعض المواد الغذائية من أجل الغذاء ،وفي المساء تقوم بتدريس منى التي لم تتعلم اللغة الألمانية بعد كل ذلك في جو بارد جدا وتراكم الثلوج في شهر كانون الاول.

وتقوم بكل هذا الجهد ستة أيام بالأسبوع دون أية شكوى أو تذمر.فالمرأة تظهر عظمتها وبأسها وصلابتها في الأيام العصيبة وليس في ساعات الرخاء والنعيم.

الحب الذي ربطنا لسنوات عديدة بدأ يتطور الى احترام شديد.

قبل أن أبدأ العمل نزلت إلى السوق واشتريت سيارة لونها أحمر ،لأن الحياة في مثل ظروفنا بدون سيارة كانت لا تطاق.

لم يكن في المدينة التي نعمل بها أي معارف أو أصدقاء والمجتمع الألماني كان قد دخل الى مرحلة متقدمة من تطور الرأسمالية متخليا عن المشاعر الإنسانية شيئاً فشيئاً والإنسان لايفكر إلا بنفسه وتفوقه على زميله الآخر . بعد دخولي العمل بمرحلة أسبوع جاءني رئيس القسم وطلب بأن نقوم بزيارة مشتركة لتحضير المرضى إلى عمليات اليوم التالي ،وخلال ذلك سألني هذا مريض يشكومن الأمراض التالية ،فكيف ستقوم بتخديره وأية آلية ستقوم باستخدامها؟

فما كان مني إلا أن قلت له بأن خبرتي في فن التخدير تفوق خبرته بمراحل وإني لا أسمح له بامتحاني وأوراقي وشهاداتي هي في حوزته ويستطيع الرجوع إليها ،فقال أنا رئيس القسم ويحق لي أن أسأل ،فرفضت مجدداً فقال إذن نحن مفصولون ،بمعنى أني مفصول عن العمل.

نزلت إلى إدارة المشفى وأخبرتهم بما جرى ،فقالوا هذا ليس من صلاحياته.نحن قمنا بالمفاوضات ونحن من دفعنا أثمان بطاقات الطائرات لك ولأولادك ووظفنا زوجتك طمعا بالعمل معك.

خرجت من هناك إلى غرفة استراحة الأطباء ووجدت هناك مندوب دعاية لشركة أدوية .سألني لماذا أنا مقبوض على غير عادتي،فحدثته بما جرى فقال هذه مشكلة بسيطةً وأنا سأجد لك مكان أفضل من مكانك الحالي ،انتظرني أسبوع فقط.لم يمضي أسبوع إلا ورئيس أطباء مشفى في مدينة مجاورة يتصل معي على الهاتف ويطلب أن أزوره.الرئيس السابق تراجع عن موقفه ولكن صحن البورسلان قد تكسر في نظري ولا يمكن الصاقه.

يوم الأحد الذي تلى الحادث كنت في زيارة رئيس الأطباء الجديد الذي أبدى الرغبة بالعمل معي بعد أن أخبرته عن خبراتي وعرض علي منصب رئيس القسم أي نائبه ومبلغ راتب مغري جدا.

خرجت سعيداً جداً وبدأت في العمل بعد أسبوع تماما.

على الجانب السياسي اتصلت مع الرفيق سلطان أبازيد المقيم في باريس، والذي كنت أعرفه جيدا في فترة الدراسة في لايبزيغ، وأخبرته عن عزمي متابعة دراسة التخدير، فقال لدينا فرقة حزبية في ألمانيا، فهل تريد أن تنضم اليها أم أنك تفضل العمل في الحزب من خلال الاتصال الفردي، كنت متخوفاً بعض الشيء من وجود ألغام لصالح النظام، لذا فضلت طريقة الاتصال الفردي معه.

-الفصل الثالث والعشرون-

كان رئيس القسم طبيب ذو إمكانيات محدودة ومعلومات ضعيفة لا تأهل صاحبها لإشغال هذا المنصب. وكنت أرغب بالقدوم إلى ألمانيا من أجل تقوية معلوماتي وزيادة خبرتي في مجال طب العناية المشددة أو المركزة. كنا هو وأنا نقوم بالزيارات اليومية لقسم العناية المشددة، وبعد مرور شهر واحد، على ما أذكر، تكلم معي رئيس القسم وقال ظهر لي وتيقنت بأنك طبيب عناية مشددة من الطراز الأول، وقررت أن أكلفك بالاشراف الطبي الكامل على قسم العناية المشددة، وبالمقابل أتخلى لك عن كافة مداخيل المرضى الخاصين ،أصحاب الدخول العالية، وغير المشمولين بالتأمين الصحي التابع للدولة، وهذا يعني أنني سوف أضيف هذا الدخل إلى راتبي السنوي ليصل الى مبلغ 155 الف مارك بالسنة. وهذا يشكل دخل عالي جدا في ذلك الوقت. وفي الوقت ذاته تعرف الجراحون من كل الإختصاصات على تفوقي على رئيسي، وأصبح رئيس قسم الجراحة بسألني اذا كنت اليوم الفلاني موجود في العمل أو لا، بسبب نيته إجراء عملية معقدة لمريض مصاب بأمراض أخرى معقدة، لأنه لا يثق برئيسي.

ذاع صيتي كطبيب تخدير ممتاز في أجواء المشفى وبين أعضاء هيئة رئاسة المشفى من غير الاطباء.

وتشاء الصدف أن بعض العاملين في المشفى،شاهدوا بأم أعينهم ،كيف أدخل رئيسي الى مكتبه ،عاملة جميلة ،في المشفى ولم تخرج الا بعد مضي نصف ساعة منكوشة الشعر محمرة الوجه ،فأصبحوا يلغطون بأن هناك بين الاثنين علاقة جنسية مريبة.وصل الخبر لرئاسة هيئة الادارة ،وطلبت من رئيس قسم التخدير الحضور لمقابلة معه ،فقاموا بتعنيفه بشكل قاس وحاد ،فأجابهم بالكف عن ذلك ،والا سيقدم استقالته من الوظيفة،فقالوا أنت قلتها وطلبوا منه التوقيع على نص طلب الاستقالة فورا ،هذا النص كان مكتوب ومعد مسبقا ،فلم يستطيع التراجع ،وفي اليوم التالي جرى تكليفي برئاسة القسم.

وهذا التكليف يحتاج الى موافقة رئيس حكومة الإقليم ،جرت الموافقة على تكليفي مؤقتا و محددا بثلاثة أشهر ،ووضعت إدارة المشفى إعلان في المجلة المركزيةلأطباء ألمانيا ،ولكي

لا أطيل ،وقد أطلت ،مضت مدة الثلاثة شهور وستة شهوربعدها قبل أن يتعاقد المشفى مع طبيب رئيس للقسم ،ومن سوء حظ المشفى كان عمر الرئيس الجديد اقل من عمري لذلك تقدمت بدوري باستقالتي على الفور ،فأنا أرفض أن أعمل مع رئيس أصغر مني بالعمر.

كانت زوجتي لا ترغب بالانتقال لمدينة أخرى ،حرصا منها ،وخوفا من انتقال أولادنا إلى مدارس أخرى.

كانت هناك مدينة ،تبتعد عن مدينتنا مسافة 12 كم اسمها اولدي،**oelde**,وفيها مستشفى حديث جدا،تعاقد مع طبيب تخدير أخصائي،كرئيس للقسم الحديث الإنشاء،وهذا الطبيب قام بدوره بالبحث عن نائب له.اتصلت به فورا وعرضت استعدادي للعمل معه ،فكان سروره واضحا ،وطلب مني التقدم باوراقي الثبوتية،وخلال أسبوع واحد وقعت على عقد مع ادارة المشفى التي كانت تبحث عن طبيب مثلي.باشرت بالعمل يوم اثنين ،وقام رئيسي الألماني بالسفر باجازة سفر محجوزة من قبله الى جنوب المانيا.كان هذا الطبيب متعجرفا،متكبرا،غير متعاون مع جراحي المشفى.

عملت لمدة عشرة أيام فقط ظهرت خلالها طاقاتي المعرفية،مما دعى رئيس قسم الجراحة العامة،بالتوجه إلى ادارة المشفى،طالبا منهم التعاقد معي رئيسا لقسم التخدير والعناية المشددة، وإقالة الرئيس الحالي ،التي ستنتهي مدة العقد التجريبي معه ،ومدتها ستة إشهر ،خلال هذه الفترة،حسب قوانين العمل في ألمانيا يحق لطرفي العقد ،أي المشفى والطبيب ،فسخ العقد دون مبرر،واذا تجاوز العقد التجريبي ،يصبح فك العقد أمرا صعبا جدا ،ويحتاج إلى محاكم عمل ودفع تعويضات عالية جدا من قبل المشفى.

قال رئيس قسم الجراحة للإدارة بأن الدكتور جون أفضل مهنيا وسلوكيا من الرئيس الحالي.توجه المدير الإداري وقام بارسال رسالة مسجلة بالبريد على عنوان الفندق الذي يسكن فيه الرئيس خلال إجازته يعلمه فيها عن فك عقد العمل معه.ولم يرجع هذا الطبيب إلى مكان عمله مرة اخرى.

وقامت إدراة المشفى بالاعلان عن حاجتها لطبيب تخدير كرئيس للقسم ،والسبب في ذلك يرجع إلى قانون ألماني اتحادي ،يمنع فيه تولي أجانب رئاسة أقسام في المشافي ،فقط حاملي الجنسية الألمانية يحق لهم ذلك.لذلك كان عقدي مع المشفى مؤقتا.

خلال عملي وفي بدايته ،جاءنا مريض مصاب بكسر عنق عظم الفخذ قادما بمروحية من اسبانيا ،حيث كان يقضي اجازته السنوية.هذا الرجل صاحب سمعة كبيرة وخطيب بارز في المحافل ،ويشغل منصب رئيس تحرير جريدة واسعة الانتشار في ولاية مونستر..وأصر على إجراء العملية الجراحية ،زرع مفصل اصطناعي في مدينته.

قمت مساء حضوره بزيارته في غرفته في المشفى لأقوم بفحصه ولشرح أخطار عملية التخدير والإجابة على أسئلته.أثناء حديثي معه تبين أنه يخاف ويهلع من التخدير ويخاف أن ينام ولا يصحى.فقمت بتهدئته وقلت له بأنني ساجري له عملية تخدير قطني، نصفي ،ولا حاجة لتخدير عام ،وبأنني ساجلس بالقرب من رأسه ونتحدث سوية أو أعطيه جهاز تسجيل يسمع من خلاله الموسيقى التي يرغب بها.تحدثنا خلال كل فترة العملية دون أن يشعر بأي ألم أو ازعاج ،وقلت له بأنني سأقوم مساءًا بزيارته ومعي زجاجة خمر أحمر نشربها سوية ،وهذا ما حدث فعلا.

قمت باليوم التالي بزيارته وفحصه.سألني من أي بلد قدمت لنا إلى ألمانيا فأجبته إني من سوريا ،فقال أنت مكسب لألمانيا ،هل استطيع أن أقدم لك أية خدمة.كنت أعلم بمدى نفوذه السياسي ،فأجبته بأنني بحاجة لتسريع عملية الحصول على الجنسية الألمانية ،حيث تقدمت بطلبها من رئاسة حكومة منستر منذ عدة اسابيع.فقال أبق هنا، واتصل هاتفيا على الفور برئيس الحكومة وبعد التحية والسلام ،قال له بأن كنز كبير ومكسب عظيم لألمانيا يقف الى جانبي في المشفى يدعى د.جون نسطة تقدم بطلب الحصول على الجنسية الألمانية فأرجو الاسراع بالموافقة عليها ولم يمضي إلا أسبوعين حتى جاءني الخبر اليقين بأنني حصلت على الجنسية الألمانية دون أن اتخلى عن جنسيتي العربية السورية التي أفتخر بها.

وبعد ذلك وقعت على عقد عمل دائم كرئيس أطباء في المشفى الذي أعمل فيه.

في هذه المرحلة كنت هلى صلة دائمة مع الرفيق سلطان أبازيد الذي يقيم في باريس وكان هذا التواصل يتنوع بين زيارات إلى فرنسا لرؤيته وبين اتصالات هاتفية وأيضا كنت على صلة برفاقنا بالحزب مثل الرفيق عبد الحميد الأتاسي والرفيق المرحوم شكر الله عبد المسيح الذي كان يزور باريس أيضا ويزور الرفاق المقيمين هناك . . لكنني كنت معارض لموقف الحزب تجاه علاقاته وصلاته مع العراق و كنت معارض لرئيس فرع الحزب في باريس بقيادة أحمد المحفل بصلاته مع صدام وكنت أقول ما الفرق بين حافظ الأسد وصدام حسين حيث يتمتعان بصفة الديكتاتور بنفس السوية .

في هذه الفترة كانت صلة أحمد المحفل مع العراق قوية ومتينة . بحيث كان يأخذ أموالا من العراق ويصرفها على حزبنا في فرنسا وغيرها . طبعا كان إنسانا شريفا ولم يستخدم الأموال لأغراض شخصية فقط كان يستخدمها لدعم الحزب والرفاق

لكن انتقادي لهم يقوم على مفهوم مبدأي لدي فهذه العلاقة تضر بسمعة الحزب والرفاق . زرت أحمد المحفل في البيت وعبرت فيه عن رأيي بواجب الابتعاد عن أي صلة مع العراق والجواب كان أن الحزب بحاجة الى تمويل لاستمراره ولا يوجد طريق آخر.

-الفصل الرابع والعشرون-

الرفيق أحمد محفل أقام أو حاول اقامة صلات مع الاخوان المسلمين ،حلفاء صدام حسين في العراق ،وقام بزيارة لبغداد برفقة الدكتور سلطان أبازيد وأقاما في فندق الرشيد لمدة عدة أيام.كان موقف الاخوان منهما جاف وغير ودي،رغم ضغوط بعث العراق الساعي لإنشاء تحالف سوري معارض.ومن الجدير ذكره بهذه المناسبة فإن الرفيق أحمد محفل كان يستند في موقفه هذا الى نص ورد في احد أعداد جريدة نضال الشعب جرى الحديث فيه في إجتماع للجنة المركزية،ربما كان الأخير قبل حملة الاعتقالات عن وجود اسلاميين متنورين.الأغلب إن رياض الترك هو الذي أعطى الضوء الاخضر لأحمد محفل لاقامة صلات مع الاخوان المسلمين ،ثم تنصل من هذا الموقف ،وصار يقول بأن أحمد محفل يتحمل مسؤولية هذا الخطأ لوحده.

كان الرفيق الدكتور شكرالله عبد المسيح معارضا في مواقفه لخط أحمد محفل السابق ذكره مع مشاركتي الداعمة بوضوح.

الرفيق رياض الترك قام مبكرا منذ عام1976برفقة الدكتور فايز الفواز بإقامة صلات مع حزب الاتحاد العربي الاشتراكي الديمقراطي بزعامة الدكتور جمال الاتاسي ،وكذلك مع حزب العمال الثوري ،ياسين الحافظ،ومع حزب البعث العربي الاشتراكي الديمقراطي ،وحركة الاشتراكيين العرب ،داعيا الى تأسيس التجمع الوطني الديمقراطي حيث تم اصدار بيان يدعو الى نشر العدل والديموقراطية ونشر الحريات ودولة المواطنة

واعتماد دستور دائم في البلاد ،وصدر في الثامن عشر من شهر آذار عام 1980بيان بهذا الخصوص باسم التجمع الوطني الديمقراطي ،جرت على اثره حملة اعتقالات واسعة شملت أوساطاً واسعة بين كوادر الاحزاب الموقعة ،وفي مقدمتها أعدادا واسعة من مناضلي حزبنا.الذي كان قد أقام صلات قوية مع العراق بواسطة أحمد محفل الذي كان يتلقى أموالا غير قليلة من القيادة القومية لبعث العراق وكذلك من ياسر عرفات.رياض الترك ول من بادر بطلب المساعدة من شاوشيسكو رئيس جمهورية رومانيا الذي كان بزيارة لدمشق وحصل منه على أربع منح دراسية.

كان رياض الترك يتمتع بحدس سياسي حاد ،ولكن موضع ضعفه عدم تمكنه من استيعاب النظرية الماركسية والمادية التاريخية وعدم تمكنه من علم الديالكتيك.كانت قدرته على الكتابة متواضعة جدا ،ولكن يعوض هذا الضعف بالمقابلات الصحفية.

حدثني الدكتور أحمد فايز الفواز أنه لم يكن قادرا على كتابة افتتاحية الجريدة ،يبدأ بكتابتها ولكن لا يستطيع اكمالها للنهاية ،يكملها عنه الدكتور فايز.ومع الأيام تحول من الماركسي المتعند إلى الماركسي البراغماتي.

-الفصل الخامس والعشرون-

لا أدري الظروف التي دعت لإدخال رياض الترك إلى الميتم الإسلامي في حمص ليدرس ويعيش هناك ويتحمل قسوة المرشدين والموجهين ،لكن هذا ما جعله يتقن أساليب الخبث والدهاء لتفادي الظلم والقسوة الممارستان هناك.بالاضافة إلى تدريب النفس على الصبر والحرص على تفادي الأخطاء عن طريق الانضباط والحذر الدائم.ثم ليخرج من الميتم.ويبدأ العمل كعامل على النول اليدوي أولا والآلي بعد حين ،وهذا العمل كما تعرفون يتطلب القدرة البالغة على الصبر والسيطرة على الجسد والنظر.وكان يتابع الدراسة ليلا بنفس الوقت مع العمل الحزبي الدؤوب.وحصل على الشهادة الثانوية وعين استاذا في مدارس ريف حمص.

في هذه الفترة جرت اعتقالات واسعة ضمن صفوف الشيوعيين على يد مباحث السراج ،سبقها اعتقال المناضل الشيوعي الاستاذ سعيد الدروبي الذي جرى تعذيبه حتى الموت بإشراف الجاني عبدو حكيم ،في هذا اليوم من شهر شباط عام 1959خرج ما يزيد عن 30000 متظاهر في جنازة المرحوم سعيد الدروبي،ومن على قبر الشهيد وقف رياض الترك يلقي كلمة الحزب التأبينية.

جرت ملاحقة الرفيق رياض حتى تمكن رجال الأمن من اعتقاله ، وجرى تعذيبه الشديد مما دعى راديو موسكو بأن يعلن خبر وفاته ،مما استدعى تلفزيون دمشق إظهار الرفيق رياض الترك حيا على الشاشة لتكذيب راديو موسكو.

وكان زواجه السياسي ،دليل ذكاء وحنكة ،من الطبيبة الحمصية المناضلة أسماء الفيصل شقيقة السياسيان الشيوعيان القياديان يوسف وواصل الفيصل القربيان من مركز القرار خالد بكداش ،مما سمح بضمه الى عضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري في زمن خالد بكداش نفسه . الأمر الذي سمح له في المؤتمر الثالث للحزب بقيادة الفريق الذي شن هجومهه اللاذع ضد بكداش نفسه الذي دفعه لشق الحزب عبر اصدار بيان 3نيسان 1972 ولم يبقى معه من أعضاء المكتب السياسي سوى يوسف فيصل،عندما فقد بكداش أكثرية اللجنة المركزية وأكثرية المكتب السياسي وأكثرية أعضاء الحزب.

وهو ماقاد إلى نشوء الحزب السياسي الشيوعي السوري الجديد باسم المكتب السياسي.

لست أنا بصدد الكتابة المؤرخة للسيرة الذاتية لرياض الترك.الذي دخل السجن في تشرين أول عام 1980ولم يخرج منه الا في نهاية أيار 1998.الغريب أنني حين زرته للسلام عليه وتهنئته بالافراج عنه في منزله في مدينة حمص برفقة الرفيقين توفيق رضا ومحمد العطري ،تابع الحديث من حيث انتهينا في العام 1980وانقطع بسبب الاعتقال وكان يدور عن يوسف نمر.

رياض الترك الأسطورة النضالية الذي أمضى 18عاما في سجون الأسد دون أن يرى النور ودون استقبال زيارة واحدة ،إنه من معدن خاص من الصلابة والتحمل والشجاعة لم يحدث التاريخ السياسي السوري مثلها.

والغريب أن هذا الرجل الشيوعي الاسطوري انزلق نحو الخطأ السياسي الفادح حين تحالف مع الاخوان المسلمين وحين أسس حزبه الجديد حزب الشعب الديمقراطي بموضوعاته الليبرالية الجديدة تحضيرا للاحتلال الأميركي الذي جرى الاعداد له ولم يحدث والذي كان رياض يتوقعه وينتظره.

الفهرس

الفصل الأول.. لصفحة-2-

الفصل الثاني...الصفحة-9-

الفصل الثالث...الصفحة -25-

الفصل الرابع...الصفحة34 -

الفصل الخامس...الصفحة-42-

الفصل السادس...الصفحة-51-

الفصل السابع...الصفحة-57-

الفصل الثامن...الصفحة-64-

الفصل التاسع...الصفحة-73-

الفصل العاشر...الصفحة-80-

الفصل الحادي عشر..الصفحة-84-

الفصل الثاني عشر..الصفحة -89-

الفصل الثالث عشر الصفحة-99-

الفصل الرابع عشر..الصفحة-105-

الفصل الخامس عشر..الصفحة-112-

الفصل السادس عشر..الصفحة-119-

الفصل السابع عشر..الصفحة -125-

الفصل الثامن عشر..الصفحة-131

الفصل التاسع عشر..الصفحة-139-

الفهرس

الفصل العشرون الصفحة-146-

الفصل الحادي والعشرون.. الصفحة-152-

الفصل الثاني والعشرون... الصفحة-158-

الفصل الثالث والعشرون... .الصفحة-164-

الفصل الرابع والعشرون... الصفحة-169-

الفصل الخامس والعشرون... الصفحة-172-